الدكتور حسين نصار
عميد كلية الآداب القاهرة

نشأة التدوين التاريخي عند العرب

منشورات
إقرأ

الطبعة الثانية
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

منشورات إقرأ

هاتف: ٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧- ص.ب: ٥٢٥١/١٣- بيروت - لبنان

نشأة التدوين التاريخي
عند العرب

مُقَدِّمَة

التاريخ: تعريف الوقت، والتوريخ مثله، أرخ الكتاب ليوم كذا: وقته، والواو فيه لغة. وزعم يعقوب أن الواو بدل من الهمزة[1].

وقد اختلف العلماء في أصل هذا اللفظ، فذهب بعضهم به إلى العربية الخالصة، فقال: إن التاريخ مأخوذ من لفظ الأرخ، بمعنى ولد البقرة الصغير، لأنه يشبه الشيء الحادث كما يحدث الولد، فهو حدث جديد[2]. وعزاه بعضهم الآخر إلى الفارسية، فقال: إنه مأخوذ من «ماه روز» بمعنى «يوم الشهر» فعربوها وقالوا «مؤرخ» وجعلوا المصدر منها التاريخ[3]. وهو اشتقاق بعيد لا يظهر فيه تقارب بين اللفظين العربي والفارسي. ويتصل هذا القول ـ دون شك ـ بالخبر القائل بأن المسلمين تأثروا بالفرس في أخذهم تاريخ الهجرة تقويماً لهم، إذ أشار الهرمزان الفارسي على

---

(١) لسان العرب: مادة «أرخ».
(٢) المصدر السابق.
(٣) البيروني: الآثار الباقية ص ٢٩، والخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ٧٩.

عمر بن الخطاب بذلك[1] ولكننا نرجح الرأي القائل بعربية الكلمة، وإن كنا لا نشاركهم في أنها مأخوذة من الأرخ، وإنما هي كلمة عربية قديمة مشتركة في اللغات السامية، تلوح القرابة بينها وبين كلمة «يا ريح» التي معناها «القمر» والتي معناها أيضاً «الشهر» في العبرية[2].

ومن المعروف أن الساميين كانوا يحددون شهورهم بالقمر لا بالشمس، ولذلك كانوا يبنون تاريخهم على الليالي دون الأيام، كما هو الحال في التقويم الهجري الآن. وعلى هذا الرأى نرى أن معنى كلمة «التاريخ» في مبدأ أمرها كان «تحديد الشهر» ثم اتسع فصار التوقيت العام، أي تحديد عهد أي حادث من الحوادث. ولا زالت اللغة في تطورها حتى شمل هذا اللفظ رواية الحادث نفسه من جهة وتحديده من جهة أخرى، وكانت هذه الخطوة الأخيرة في سبيل بزوغ كلمة التاريخ بالمعنى الإصطلاحي المعروف.

وأطلق لفظ التاريخ في عهده الأخير على عدة معان متقاربة. فهو بمعنى التاريخ العام، أي تسجيل أهم الحوادث كما يظهر في تاريخ الطبري قبل الإسلام والكتب الأخرى؛ وهو بمعنى الحوليات، أي تدوين الحوادث عاماً فعاماً مثل تاريخ الطبري بعد الإسلام وتاريخ إبن الأثير وغيرهما؛ وهو بمعنى تدوين.

(١) نفس المرجعين.

(٢) جب: دائرة المعارف الإسلامية، مادة «تاريخ».

الأخبار مرتبة بحسب العصور، مثل سيرة معاوية وبني أمية لعوانة بن الحكم؛ وهو بمعنى التراجم، كما نرى في كتاب «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» لأبن القفطي ومعجم ابن خلكان وغيرهما.

وأطلق أيضاً على مصنفات تختلف عن المصنفات التاريخية اختلافاً كبيراً، مثل «تاريخ الهند» للبيروني، إذ هو أقرب إلى مصنفات البحوث العقلية منه إلى المصنفات التاريخية. ويعني إلى جانب كل هذه المعاني، المعنى اللغوي الأول، أعنى تحديد بداية الأخبار الخاصة بعصر من العصور، أو حساب الأزمان وحصرها، أو تحديد زمن الحوادث تحديداً دقيقاً.

الفصل الأول

ظهور التدوين التاريخي

العصر الجاهلي

إذا أجهدنا أنفسنا باحثين عن أي نوع من الكتابة التاريخية في العصر الجاهلي، لم نكد نظفر بشيء، حتى البلدان المتحضرة التي كنا نظن أنها تحرص على تسجيل حياتها ورقيها، مثل اليمن والحيرة وغسان، لم يصل إلينا منها كتب تاريخية أيضاً. وكان تاريخها نسياً منسياً لدى العرب، سكانها أو غير سكانها ولذلك دخلت عليهم الأباطيل والخرافات عندما أرادوا الكتابة عنها بعد ظهور الإسلام، وحلق بهم الخيال في الأجواء، حتى ما نستطيع أن نركن إلى حقيقة؟ يقولون، على الرغم من النقوش الموجودة حتى اليوم على الآثار الباقية في اليمن وشمال بلاد الحجاز وجنوبي الشام، مما يدل على جهل المؤرخين العرب بالخط الحميري والخطوط الأخرى في بلاد العرب القديمة. والشيء الوحيد الذي نسمع عنه هو تلك المدونات التاريخية، المودعة في أديار الحيرة وكنائسها والتي أطلع عليها الكلبي فيما بعد، وإن كنا لا نعرف عنها شيئاً فيما عدا ذلك[1].

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٣٧.

ولا يمكننا الركون كثيراً إلى الوثائق التي تروى في كتب التاريخ الإسلامية عن هذا العصر، وإنما نقابلها بالشك الشديد، الذي تثيره فينا ظروف هذه الوثائق. ومثالها الواضح تلك الوثيقة التي يذكرها أبو حنيفة الدينوري في تاريخه أن عمر بن إبراهيم من وفد أبرهة بن الصباح آخر ملوك اليمن أرسلها إلى الكرماني حسب طلب الأخير[1]. وكانت هذه الوثيقة عبارة عن حلف عقد بين ربيعة واليمن أمام تبع بن ملكيكرب، وعبارتها مسجوعة، وفيها عدة إشارات إلى ضروب النسك الوثني، وإن كانت تبدأ بعبارة إسلامية تقول: «بسم الله العلي الأعظم، الماجد المنعم» وتنتهي بذكر الله وشهادته على الحلف، كما كان يفعل المسلمون، إذ تقول: «وشهد الله الأجل، الذي ما شاء فعل». حين يقع نظر المرء على الرسالة يغمره الشك فيها من جميع الأنحاء.

الأيام

ولكن العرب ـ على الرغم من كل ذلك ـ عرفت نوعاً من التاريخ الشفهي، فقد كانت القبائل تروي أيامها؛ حروبها وانتصاراتها، لتفخر بها على القبائل الأخرى، سواء كان ذلك شعراً خالصاً أو نثراً تتخلله الأشعار. ولم تكن الصلة واحدة دواماً بين الشعر والنثر في الأخبار، فأحياناً يكون النثر شرحاً للقصيدة، وأحياناً يكون الشعر مرتجلاً على لسان أحد أبطال

(١) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري: الأخبار الطوال ٣٥٢.

الخبر دون أن تربطه صلة بالخبر المنثور. وكان الشعر في كلتا الحالتين هو الذي يحافظ على تناقل الخبر وانتشاره. فلما نسيت هذه الأشعار نسيت الروايات القديمة، وابتكرت أشعار جديدة للتنويه بمآثر القبيلة من أفعال مجيدة. وعلى الرغم من كل ذلك نستطيع أن نطمئن إليها بعض الإطمئنان، إذ لا بد أنها تقوم على أساس واقعي، وإن اصطبغت بالتحيز والمغالاة.

الأنساب

وكانت كل قبيلة تحفظ نسبها، وتحفظه أبناءها، لتظل نقية بعيدة عن الشوائب، ولتستطيع أن تفخر به على القبائل الأخرى، وسيكون لهذا الفرع من التاريخ مكانته بعد الإسلام.

وهكذا وجدت هذه القصص التاريخية المصبوغة بالخرافات والأساطير لدى القبائل، وكانت كل قبيلة تعنى بما تعتبره تاريخها، وترويه لأجيالها القادمة. ولكن عرب الشمال لم يصلوا بعد إلى تاريخ عام لهم يشمل كل قبائلهم، إذ لم يكونوا قد أدركوا معنى الوطن، ولم تكن الظروف قد وحدتهم في أمة واحدة.

تاريخ الأمم المجاورة

وعرف العرب بعض أخبار من جاورهم من الأمم، مثل الفرس والرومان، حتى ليقال إن النضر بن الحارث كان ينافس

الرسول عليه الصلاة والسلام، ويدل عليه بمعارفه عن الفرس. ولكن ذلك التاريخ كان قصصاً وخرافات، لا تختلف عن قصصهم وخرافاتهم عن عرب الجنوب والشمال في أغلب الظن.

ظهور الاسلام

بعد الإسلام انتشرت في المملكة الإسلامية في هذا العهد حركة تاريخية أخذت تتسع وتنتظم شيئاً فشيئاً حتى خلفت لنا ثروة أدبية من أغنى ثروات الأدب العربي. وكانت أهم العوامل التي بعثت تلك الحركة هي:

١ - إحتاج المسلمون في تفسير الآيات القرآنية إلى معرفة مناسباتها، أعني سبب نزولها، والموضع الذي نزلت فيه، والحادثة التي تشير إليها، وما إلى ذلك مما يسمى ما حول النص. ومن الواضح أن معرفة هذه الأشياء تحتاج إلى بحث تاريخي في حوادث الإسلام. وهكذا كان التفسير من العوامل التي دعت إلى التدوين التاريخي.

وقد أكثر القرآن أيضاً من الإشارات إلى الأمم والقبائل والأنبياء في قصصه عن الغابرين، فرغب علماء المسلمين في فهم هذه الإشارات وتوضيحها. كان الإسلام قد أظل كثيراً من اليهود والنصارى. فلجأ إليهم المسلمون ليعرفوهم بتلك الإشارات. فأخذ هؤلاء يحدثونهم بقصص التوراة والإنجيل

وشروحها، فربطها المسلمون بالتفسير والتاريخ، واشتهرت هذه الأخبار في العلمين باسم «الإسرائيليات». ويتمثل لنا ذلك في كعب الأحبار (المتوفي عام ٣٤ هـ ووهب بن منبه (المتوفي عام ١١٠ هـ). ولا تزال آثاره في كتب التاريخ والتفسير التي وصلت إلينا.

٢ ـ كان الحديث أيضاً من عوامل تدوين التاريخ، إذ عنى المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن، ويستنبطوا منها أحكام الدين. وكان من هذه الأحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة النبيّ والصحابة، فجمعت فيما جمع، وكانت أساس كتب السيرة والمغازي فيما بعد.

٣ ـ شعر بعض الخلفاء أنهم محتاجون إلى نبراس يهتدون بهديه في سلوكهم، إذ لم يكن لهم تراث عربي يقتدون به، كما أنهم رأوا ممالك أجنبية بهرتهم حضارتها، فأحبوا أن يعرفوا كيفية سياستها ونظامها. فقد كثرت المشكلات السياسية والإجتماعية والإقتصادية حتى هدمت نظام الخلافة وأقامت نظام الملك. وواجه العقل العربي، الذي كان ساذجاً في جاهليته، مشكلات حقيقية، منها ما يمس الدين والحضارة، ومنها ما يمس الحياة العادية والإجتماعية فرأى ألا بد من الإستعانة بأخبار من سبقه ليستنير بها. روى المسعودي[1] عن معاوية أنه كان بعد أن يفرغ من عمله «يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها،

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢:٥٢.

والعجم وملوكها، وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة... ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها. فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات».

٤ ـ كان الأجانب الذين أظلهم الإسلام يفخرون على العرب بتاريخهم وحضارتهم ويروون لهم أفعالهم المجيدة في ماضيهم. فاضطر العرب إلى ابتكار تاريخ لهم يستطيعون به الوقوف بإزاء هذا الفخر الأجنبي، ويظهرون لأبنائهم وغيرهم من الأمم أنهم، وإن كانوا حديثي عهد بالحضارة، ليسوا أقل من الأمم الأخرى مجداً ومكانةً. وكان هذا من دواعي ظهور الكتابة التاريخية في الأمة اليونانية أيضاً.

٥ ـ كان نظام الحكومة الإسلامية، وخاصة النظام المالي، من العوامل التي أدت إلى قيام الحركة التاريخية وانتشارها، لأن الضرائب (الخراج) على البلدان المختلفة تتباين حسب فتحها صلحاً أو عنوة أو بعهد. وكانت المعاملة السياسية والإجتماعية نفسها تختلف في بعض البلدان تبعاً لما حدث في أثناء فتحها. فدعا كل ذلك، والنظام المالي خاصة، إلى بحث تاريخ الفتوح، والإهتمام بهذا الفرع من التاريخ.

ودعا النظام المالي إلى نشوء فرع آخر من التاريخ، وكان ذلك

لأن نظام العطاء تغير منذ عهد عمر، فصار بحسب الأسبقية إلى الإسلام ، أي أن الذين أسلموا في أول الدعوة يأخذون من العطاء أكثر مما يأخذ من أسلم بعدهم، ومن أسلم وهاجر يأخذ أكثر من المسلم بعد الهجرة، ومن أسلم وشهد بدراً يأخذ أكثر مما يأخذ من لم يشهدها من الذين أسلموا بعدها، وهلم جراً. وكان هذا النظام سبباً في البحث الدقيق في الدعوة الإسلامية وانتشارها. كما كان العطاء مرتباً أيضاً حسب الأنساب، أي يبدأ بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب، ثم قرابة أبي بكر ثم عمر.... وهكذا في الأنصار وفي جميع المسلمين. ومن الواضح أن هذا النظام يدعو إلى البحث في الأنساب، وظهور هذا النوع من التاريخ، وظهور كتب الطبقات أيضاً.

٦ - إبتدأت حركة التأليف في العلوم الأخرى المعروفة بين العرب في ذلك الوقت، حتى إننا نجد صحارا العبدي يؤلف كتاباً في الأمثال. ثم يتطور الأمر بمرور الزمن، فيقال: إن بعض كتب الكيمياء ترجمت في عهد خالد ابن يزيد بن معاوية، ويأمر عمر بن عبد العزيز بجمع الحديث، وترجمة كتاب في الطب. ويقول بعض الرواة إن عروة بن الزبير أحرق بعض كتب ألفها في الفقه في يوم الحرة[1]. كل هذه الحركة التأليفية تدلك على أن العقل العربي كان يعاني تحولاً خطيراً، وأنه أخذ في التمدن السريع، والمشاركة في التدوين والتأليف.

---

(١) ابن حجر: تهذيب التهذيب ٧: ١٨٣.

٧ - وآخر الأمر لا ننسى استمرار ما كان في الجاهلية من عناية بالأنساب والأيام، إزدادت في العهد الإسلامي، لأنها تغذي الشعراء في ميدان الفخر والهجاء والنقائض التي شاعت في هذا العصر، وكان لها المقام الأول في شعر الفحول. واتخذ هذا النوع من التاريخ لوناً جديداً أيضاً، هو العناية بغزوات الرسول. فما كان ذلك النوع من التاريخ إلا إستمراراً لما عهد عند الجاهليين إلا أن الإسلاميين دونوا والجاهليين حفظوا ورووا.

الفصل الثاني

المؤرّخون وكتبهم

الكتاب الأول

إجتمعت العوامل السابقة فأشعلت الروح التاريخي في المسلمين، فأخذوا ينظرون في هذا الفن، باحثين منقبين، وشرعوا يروون الأخبار التي يستطيعون الوصول إليها. ولكننا لا نلبث أن نرى هذه الأخبار الشفوية تدون في عهد معاوية في رسائل صغيرة تسمى كتباً. وكان هذا تحولاً خطيراً يبشر بما سيتلوه من تقدم ورقي في الدراسة التاريخية. ولا ندري بالتحقيق ما أول كتاب ظهر في التاريخ عند العرب. ولكن يتنازع الأسبقية زياد بن أبيه (المتوفي عام ٥٣ هـ (ودغفل النسابة البكري (المتوفي عام ٦٠ هـ، وعبد الله بن عباس (المتوفي عام ٦٨ هـ) وعبيد بن شرية الجرهمي (المتوفي عام ٧٠ هـ تقريباً).

زياد بن أبيه

أما زياد بن أبيه فقد ألف كتاباً في مثالب العرب[1]. ولا

(١) ابن النديم: الفهرست ٨٩.

يدهشنا ذلك كثيراً، إذ نعرف قصة نسب زياد، واستلحاق معاوية إياه، وكراهية المسلمين ذلك، بل سخرية بعض الشعراء من هذا الإستلحاق. ولذلك أراد زياد أن يزود نفسه وأبناءه بسلاح يخيف به المتعرضين له، ويشعره بعدم نقصنه، بل بنقص الآخرين في هذه الناحية. ولذلك أرجح أنه كتاب في الأنساب خاصة، وأنه ألّفه بعد استلحاق معاوية إياه، وتعيير الناس له. ويؤسفنا أن هذا الكتاب فقد، ولم يبق لنا منه شيء، وإن كنا نرجح أن كتب الأنساب والشعوبيين المتأخرين أخذت عنه.

دغفل النسّابه البكري

أما كتاب دغفل النسابة فمجالس وأسمار، في بلاط الخليفة معاوية بن أبي سفيان، الذي كان محباً للمسامرة وأحاديث من مضى. ويسمى هذا الكتاب «التظافر والتناصر». ويروي كتاب التحفة البهية، والطرفة الشهية» (ص ٣٨) المجلس الثامن عشر منه فيقول: «ذكر في كتاب التظافر والتناصر، وهو مجالس دغفل النسابة البكري عند معاوية، وأنه سأله في الثامن عشر من مجالسه، فقال: «من أبلغ العرب في ثنائه؟» فقال دغفل: «ذاك النابغة الذبياني حين دخل على الحارث بن أبي شمر الغساني يطلب إليه في أسارى قومه، فقال؛ «ألا أنعم صباحاً أيها الملك المبارك، السماء غطاؤك، والأرض وطاؤك، وولدي فداؤك، والعرب وقاؤك، والعجم حماؤك، والحكمة وزراؤك، والعلماء جلساؤك، والعقلاء إخوانك والعقل شعارك، والحلم دثارك،

والسكينة مهادك، والوقار غشاؤك، والبر وسادك، والصدق رادؤك، واليمن حذاؤك، والسخاء ظهارتك، والحياء بطانتك، والعلاء غايتك، وأكرم الأحباء أحباؤك، وأشرف الأجداد أجدادك، وخير الآباء آباؤك، وأفضل الأعمام أعمامك، وأسرى الأخوال أخوالك، وأعف النساء حلائلك. . .».

ونحن إذا بحثنا هذا القول، ولم نذهب بدون تحقيق مع ابن النديم الذي ينص على أنه لم يصنف شيئاً(١)، لا نستطيع أن نأخذ هذا المجلس حقيقة لا شك فيها. فإننا نرى الكلام ملازماً للسجع، وفيه أشياء منافية لذلك العصر، ولم نعتد العثور عليها فيه، كما نرى فيه نزعة إسلامية تسير مع قول القائلين بالتبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره. ونحن إذا لم نشك في هذه النبوءة، فإننا نشك في نبوءة النابغة بإسلام الحارث. وإنه لم يسلم فعلاً، وما أظن أنه كان يعد الإسلام فخراً له، في عصره ذلك. ولكن هذا المجلس على كل حال يبين لنا أن كتاب «التظافر والتناصر»، إن كان وجد على الإطلاق، كان يعالج التاريخ الأدبي، ويبين مقدار عنايتهم بالسمر، وأثر هذا السمر في تجويد العبارة وتحسينها.

ابن عباس

أما ابن عباس فقد نسب إليه بعض الرواة(٢) مدونات استقى

(١) ابن النديم: الفهرست ٨٩.
(٢) ابن سعد الطبقات ٥: ٢١٦.

منها من بعده من المؤرخين. ولا يذكرون أن ابن عباس جعل من هذه المدونات كتاباً خاصاً أعطاه إسماً معيناً. وهي في غالب الظن بعض مجالسه التي كان يفسر فيها القرآن، ويتعرض لمختلف المعارف العربية، دونها أحد تلاميذه أو أبنائه. ونحن لا نستطيع أن نتكلم عنها أكثر من ذلك، لأن ابن عباس من الذين حمل عليهم كثير من الأخبار في كل فن.

عبيد بن شرية

أنتجت مجالس معاوية الكتاب الرابع أيضاً، إذ أشار عليه عمرو بن العاص، لما رآه فيه من حب المسامرة والأخبار السالفة، باستدعاء عبيد وسؤاله عن الأخبار المتقدمة، فأحضره واتخذه سميراً له وأمر كتّابه بتدوين أحاديثه ونسبتها إليه، فدونت تحت عنوان «كتاب الملوك وأخبار الماضين»، كما يقول صاحب الفهرست[1]. وقد طبع الجزء الذي وجد من الكتاب في حيدر آباد باسم «أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها». ولا يزعجنا هذا الإختلاف كثيراً، لأن عبيداً نفسه لم يدونه، ولا عنونه، وإنما دونه كتّاب معاوية، ونسبوه إليه دون عنونة، كما يبدو، ومن ثم اختلف النساخ في عنوانه. ولا يبعد أن يكون لهذا الإختلاف أسباب أخرى غابت عنا. ويؤكد لنا العنوان نفسه أنه من وضع أناس غير عبيد، إذ

(١) ابن النديم: الفهرست٨٩.

تقول النسخة المطبوعة «أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال والحمد الله على كل حال» فتصريحه باسم عبيد، وقوله «على الوفاء والكمال»، قد يشعر بأن هذه العبارة كلها من كتابة شخص آخر غير المؤلف.

وحين نقلب صفحة العنوان نرى الكتاب يبدأ بالبسملة والحمد، ثم أسناد روايته «حدثنا عبيد بن شرية الجرهمي، عن البرقي يرفع الحديث أن معاوية...». وإذن فالكتاب عن رواية البرقي، وهو تلميذ ~~لمحمد~~ لعبد الملك بن هشام وإذن فالمستر كرنكو f. krenhow له دعامته التي يتكىء عليها حين يستنتج من ذلك أن جامع الكتاب هو ابن هشام، وأن القائل «عن البرقي» أحد تلامذته. ولسنا نستبعد ذلك، ولكنا نحب أن نتصفح الكتاب قبل الإدلاء برأينا.

يقدم الكاتب بين يدي الكتاب بمقدمة يشرح فيها ولاية معاوية وخلافته وحبه للسمر، وإشارة عمرو باستدعاء عبيد، وكبر سنه، وعلمه، وسمره، وسيطرته على قلب معاوية، وأمر الأخير بتدوين أقواله.

ويتناول عبيد في هذا الكتاب تاريخ موطنه. اليمن، بادئاً باجتماع البشر في بابل، ثم تفرقهم شيعاً، وخروج بعض بني سام إلى اليمن. ثم يأخذ في سرد تاريخ هؤلاء اليمنيين، معتنياً بما أرسل إليهم من أنبياء، وإن كان همه كله موجهاً لملوكهم وغزواتهم في بطون الأرض.

وينتهي الجزء الذي وصل إلينا بمقتل طسم وماقيل فيها من شعر. ويصرح الناسخ بأن الكتاب قد تم، ولكنه يعني أنه كتب النسخة التي أمامه كلها فحسب، إذ الكتاب لم يتم، بل لم تكمل أخبار طسم نفسها، ولعل مما يؤيدنا في ذلك أننا كنا ننتظر من كتبة معاوية إشارة إلى ما حدث لعبيد في نهاية مجالس سمره.

وأول ما يلاحظ على الكتاب أنه ليس كتاباً تاريخياً بالمعنى المصطلح عليه، وإنما هو مجالس سمر تاريخية مدونة، ولذلك يغلب عليه ما يغلب على تلك المجالس من خصائص. فنرى الأسلوب الحواري يشيع فيه(١):

قال معاوية: وما كان اللسان يومئذٍ؟

قال عبيد: سرياني أوله وآخره، وهو لسان أبينا آدم عليه السلام ونوح وإدريس.

قال معاوية: كيف اختصت أرض بابل باجتماع الناس فيها؟

قال عبيد: هي سرة الأرض في فضلها، وأراد الله ذلك بها.

ولكن الأمر الجميل الذي نحسبه لمعاوية أو لكاتبه، أنه كان لا يتدخل بالأسئلة في بعض الفصول، ولذلك نراها تجري دون أية مقاطعة، أو مقاطعة لا تكاد تذكر. ومما يتصل بهذا ويحسب للكاتب أنه لم يفصل بين المجالس المختلفة، فاكتسب الكتاب ميزة حسنة، وهي الإتساق وعدم التقطع، كما نرى في مجالس

---

(١) ص ٣١٦.

قصص ألف ليلة وليلة مثلاً. ولكننا خسرنا ميزة أخرى، هي عدم معرفتنا القدر الذي كان يقصه عبيد على معاوية، والمدة التي قضاها الإثنان في سمرهما. ومما يتصل بهذا أيضاً، أننا لا نرى أحداً من جلساء معاوية يظهر في الكتاب مسائلاً أو مجيباً، إلا مرتين في صدر الكتاب[1].

ونحن نذكر تلك المجالس الأدبية التي كانت تعقد في بلاط الأمويين وخاصة معاوية وعبد الملك، وكانت من الأسباب التي طورت الأدب والنقد الأدبي، ونذكر أيضاً عناية هذه المجالس بالشعر. إذا كنا نذكر ذلك، فإننا لن ندهش حين نرى عبيداً يعنى عناية شديدة بالشعر، ونرى معاوية ـ على الرغم من هذه العناية الشديدة ـ يلتمس منه الأشعار، فيقول[2]: «وسألتك ألا تمر بشعر تحفظه فيما قاله أحد إلا ذكرته»، ويقول[3]: «فحدثني عن لقمان بن عاد صاحب النسور.... وما قيل في ذلك من الشعر»، ويقول: بعد أن يسرد عبيد بعض الأخبار[4]: «فهل قيل في ذلك شعر؟». وكان معاوية يطلب منه الشعر للمسامرة، ولسبب آخر غيرها، إذ كان يعتبر الشعر الدليل على صدق الخبر، يقول[5]: «وأبيك، لقد أتيت وذكرت عجباً من حديثك عن

---

(١) ٣١٣، ٣١٤.
(٢) ٣١٤.
(٣) ٣٥٦.
(٤) ٤٠٨ و ٤٠٩ و ٤٢٣، وغيرها.
(٥) ٣٥٢.

عاد، وقد علمت أن الشعر ديوان العرب، والدليل على أحاديثها وأفعالها، والحاكم بينهم في الجاهلية، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن من الشعر لحكما...». ويقول[1]: «سألتك ألا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر، ولو ثلاثة أبيات». وكثيراً ما كان يقول لعبيد بعد أن يذكر ما طلب من الشعر[2]: «لقد جئت بالبرهان في حديثك».

والشعر الذي جاء به عبيد يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: قسم ضعيف سخيف ركيك، ليس من الشعر الحق في شيء، وهو موضوع على من نسب إليهم، وهو الغالب على الكتاب. ومن أمثلته ما ينسب لطسم بن لاوذ بن إرم حين انتقل من بابل إلى بلاد العرب[3]:

أني أنا طسم شبيه سام ... ووالدي لاوذ بن رام
لما رأيت من بني أعمامي ... وإخوتي الرحيل باعتزام
قد اقتدوا بيعرب الهمام ... كرهت بعد إخوتي مقامي

وقسم آخر أجود من السابق، ولكنه من الموضوعات أيضاً. ومن أمثلته ما ينسب لتبع[4]:

سيذكر قومي بعد موتي وقائعي ... وما فعلت قومي بقيس أفاعلا
فكم من ملوك قد قتلنا رجالهم ... وكم من نساء قد تركنا ثواكلا

(١) ٣١٨.
(٢) ٣٣٠ و٣٤٩ و٤٠٠، وغيرها.
(٣) ٣١٩.
(٤) ٤٠٠.

وكم من اسير ظل في القيد ساقه يبيت يراعي غله والسلاسلا
سيذكر قومي نجدتي ومكارمي ويدخل باب العزمن كان جاهلا
بنيت لهم مجداً مع النجم سمكه وصيرته للعالمين معاقلا

أما القسم الثالث فأشعار تنسب إلى شعراء معروفين، مثل العباس بن مرداس، وأعشى بني وائل، وحسان بن ثابت، وأمية بن أبي الصلت، وامرىء القيس، وعبيد بن الأبرص، والنابغة الذبياني[1]. وقد وجدت أكثر هذه الأشعار في دواوين أصحابها، وإن كانت قد تختلف في بعض الألفاظ أو العبارات.

وهناك ظاهرة جديرة بالتسجيل في عداد حسنات عبيد، إذ نراه يعنى في بعض الأحيان بإيراد جملة من الأشعار بعد سرده الأخبار التي يعالجها، كما فعل بعد تناوله أخبار عاد وثمود. وكان عبيد يشعر بأن هذا المنهج الأكمل. قال له معاوية ذات مرة[2]: «أقيل في ذلك شعر؟» في أثناء كلامه، فقال: «نعم، يا معاوية، قد قالت العرب في ذلك أشعاراً، فإن أحببت أنشدتكها، وإن شئت في آخر الحديث، فإنه أصلح لحديثك». فقال معاوية: «سمعنيها في آخر الحديث، فهو أحسن».

ومن أجل السمر أيضاً عنى عبيد ببعض القطع النثرية وجودها وهذبها، حتى لتلفت النظر من بين باقي الأخبار، وصارت شبيهة بما يسمى في الأدب الغربي «القطع الأرجوانية» يعنون بذلك

(١) ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٦٧، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٠٥.
(٢) ٣٣٥.

الفقرات التي تلقى العناية التامة على حين يهمل ما حولها من كلام. وتظهر هذه الفقرات أوضح ظهورها في بعض الأحاديث التي ينسبها عبيد لأبطال تاريخه، وفي بعض أوصافه للأجناس. فها هي ذي جارية من عاد تقول حين رأت ريح العقوبة[١]: «الويل لعاد، التي طغت في البلاد فأكثر فيها الفساد. أرى رياحاً كأمثال الجبال، لها لجم بأيدي رجال، كأن في وجوههم شهب النار». وهذان رجل وامرأته يتخاصمان أمام عمليق في ابنهما، قالت[٢]: «إني امرأة حملته تسعاً، وأرضعته سبعاً، ولم أرى منه نفعاً، حتى إذا تمت أوصاله، واستوى وصاله، أراد أن يأخذه كرهاً، ويتركني ورهاً». فقال زوجها: «أخذت المهر كاملاً، ولم أصب منها طائلاً، إلا وليداً جاهلاً، فافعل ما كنت فاعلاً».

والكاتب في هذه الفقرات لا يعرف من التجويد والزخرف غير السجع، بل إنه لسجع ضعيف غير جميل في الغالب. ولا أدري أذلك من التحريف الذي أصاب الكتاب أم من الكاتب نفسه. أما الأسلوب الغالب على الكتاب فبسيط عادي صريح عاطل عن كل الحلى.

وظهرت في الكتاب خاصة أخرى تظهر في المسامرات، تلك هي الإستطراد، فكثيراً ما كان يذكر عبيد عرضاً في أثناء حديثه بعض الأشياء أو الأشخاص، فيسأله معاوية عنهم، فيضطر إلى

(١) ٣٣٦.
(٢) ٤٨٣.

الخروج إليهم، ثم يرجع إلى السياق الأصلي. وكان معاوية يشير عليه أحياناً بالرجوع إلى السياق قائلاً: «خذ في حديثك[1]» أو «خذ في حديثك الأول[2]» أو «دع هذا وخذ في حديثك الأول[3]». وكان معاوية يستعجل أحياناً بعض الحوادث، فيشير عليه عبيد بالتمهل[4].

وكانت مجالس معاوية هذه استمراراً لمجالس السمر الجاهلية، ولذلك نرى موضوعات عبيد تغلب عليها الصيغة التي كانت تغلب على تلك المجالس. غلب على أخباره الخيال البدائي المبالغ بل المغرق في المبالغة، وخرجت أخباره قصصاً وخرافات وأساطير، عن ملوك اليمن، لا تختلف في شيء عما كان في الجاهلية، في غالب الظن. بل يمكننا أن نعتبر كتابه تدويناً للقصص التاريخية التي كانت شائعة في الجاهلية، وخاصة في جنوب بلاد العرب. وهي قصص تاريخية، لا أخبار تاريخية، فلا نستطيع أن نخرج منها بأخبار تاريخية علمية، وإنما نظفر بأدب شعبي خيالي. ومما يكمل صورتها، ويقرب بينها وبين الجاهلية، تلك الأنساب التي تشيع فيها، حتى قلما يظهر شخص، دون أن تورد سلسلة نسبه، حقاً كانت أو باطلة. وإذن نحن لا نبعد كثيراً عن الصواب، إذا أعددنا كتاب عبيد مدونة تحوي الأخبار

---

(١) ٣٣٧، ٣٦٥، ٤٠٠، وغيرها.
(٢) ٤٠٥، ٤٠٨.
(٣) ٤٥١.
(٤) ٤١٣.

التاريخية، معالجة كما كان يعالجها الجاهليون، ولا تختلف عنهم إلا في اعتمادها على القرآن في قصص الأنبياء والشعوب التي تعرض لها القرآن. ولعله كان يضيق بالأخبار التي تناولها القرآن، لأنه لا يستطيع أن يتصرف فيها، أو يترك لخياله الحرية في تناولها، أو يرويها كما وصلته عن الجاهليين، حتى ليقول لمعاوية حين سأله عن بلقيس والهدهد[1]: «قول الله أصدق، وقد أعلمتك لست بمحدث بشيء ليس في القرآن، ولست بواصف خبراً بلغني بعدما قال الله تبارك وتعالى». واعتمد عبيد في القصص القرآنية على ابن عباس كثيراً، فكان يقول لمعاوية: «سمعت ابن عمك[2]» قاصداً عبد الله، وكان يصرّح باسمه أحياناً[3].

وكتاب عبيد ذو أهمية كبيرة، لا في تطور حركة التأليف التاريخي فحسب، وإنما لأنه يكشف لنا النقاب عن الثقافات التي كان يعرفها العرب في الصدر الأول من الإسلام، وربما التي كان يعرفها العرب في الجاهلية، وخاصة في اليمن. وأوضح ما نجد الثقافة الإسرائيلية التي تظهر بارزة في الكتاب كله. يظهر هذا في الأخبار والأشخاص والأنساب والأسماء وغيرها، بل نراه أحياناً يذكر إسم أحد الأشخاص، ثم يورد إسمه في العبرية أو

(١) ٤٢٤.
(٢) ٣٢٧.
(٣) ٣٢٦، ٣٣٦، ٤١٥، وغيرها.

السريانية فأبو إبراهيم آزر واسمه تارخ[1]، وعابر هو هود[2].

هذا هو كتاب «أخبار عبيد بن شرية»، ملحمة من أجمل الملاحم العربية النثرية التي تتناول تاريخ العرب الجنوبيين، يلعب فيه الخيال دوراً كبيراً، ويحليها الشعر والقطع النثرية الأرجوانية، والقصص الإسرائيلية المأخوذة من التوراة وأخبار الإسرائيليين، ملحمة تشبه الملاحم التي ستظهر في العصور الإسلامية المتأخرة من أمثال ملاحم عنترة والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة. ولكنها تمتاز عنها بسمو أسلوبها، وفصاحته العربية. ولعلنا لا نشتط كثيراً حين نقارنها بشاهنامة الفردوسي الشعرية التي تتناول تاريخ الفرس منذ أقدم العصور، حتى الفتح الإسلامي. ويؤسفنا كل الأسف ضياع الجزء الأخير منها.

وفي ختام الكلام عن أخبار عبيد نذكر أمراً كبير الأهمية، ذلك هو دخول بعض العناصر الغريبة فيه. فهذا خبر يصدر بالإسناد التالي[3]: وذكر بعض أصحاب السير عن عبيد بن شرية بأمر هود، قال أخبرني البختري عن محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي عن أبي الطفيل عامر بن واثلة الكناني عن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه... وليس هذا بإسناد الكتاب، والخبر ليس منه، حتى ليقول بعد الخبر: رجع الحديث إلى عبيد بن شرية ومعاوية. ويعلق الناشر على هذا الخبر

---

(١) ٣١٥.
(٢) ٣١٣، ٣١٥.
(٣) ٣٥٠.

قائلاً: «ولعل هذه العبارة كانت حاشية فأدمجها بعض النساخ في الأصل، ومع ذلك فهذا عبيد ابن شرية ليس له دخل في هذه القصة . ولكنه ليس خبراً واحداً، وإنما في أخبار كثيرة من رواية محمد بن إسحاق وغيره، مثل وهب بن منبه[1]. ونحن لا نظن أن هذه الأخبار حواش، وأدخلها النساخ في الكتاب، فإننا لا نستطيع أن نقول ذلك عن الخبر الآتي[2]: ذكر عبيد أن شمر يرعش بنى نصبا في السغد وكتب عليه «من بلغ هذا المكان فهو مثلي، ومن جاوزه فهو أفضل مني»، ثم قال عبيد: «وأنا أرجو أن يظهر الله أمير المؤمنين بذلك الموضع من الأرض، فيعلم أني قد أديت إليه من حديثي علمًا» قال معاوية: «اللهم أرنا تصديق قول ابن شرية، فإنه يذكر عجباً، وإن شاء ربي فعل ذلك». فبلغني عن الشعبي أنه ذكر عن رجل من خيوان همدان يقال له عبد الله، قال: «بينما نحن بالسغد مع قتيبة بن مسلم الباهلي، وافتتح سمرقند إذ نظر إلى حجر ملصق على الباب فيه خطوط كأنها بالعربية وليست بها. . . فقرأه على مثل ما ذكره عبيد لمعاوية، ورواه عنه من رواه». فهذا الخبر ليس من رواية عبيد، ولا ندري منه من الذي يرويه عن الشعبي. ولكننا نجد الخبر نفسه في كتاب التيجان لوهب بن منبه مروياً عن ابن هشام[3]: «قال أبو محمد «بن هشام» حدثني عامر بن جرهم الأنصاري، عن

(١) ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨١.
(٢) ٤٣٠.
(٣) وهب بن منبه: التيجان ٢٣٧.

مكحول عن الشعبي، قال: «حدثني رجل من خيوان همدان . . .» إذن فهذا الخبر ليس من رواية عبيد، بل حدث بعد موته، وهو من صلب الكتاب، ولا يظهر عليه أنه مقحم في هذا الموضع، وكذلك نرى بعض الأسماء والأنساب والأشعار تختلف روايتها باختلاف المواضع، حتى أكثر الناشر من الإشارة إلى ذلك[1]، مما يجعلنا نظن أن هذه الإختلافات ترجع إلى رواة مختلفين، لا عبيد وحده. وهناك أخبار أخرى منسوبة لعبيد، ولكننا لا نستطيع أن نصدق أنه يتفوه بها أمام معاوية. يقول[2]: وبلغني أن أولاد بربر بن كنعان بن كوثر بن حام الذين يزحفون لرجل من ولد فاطمة حتى يردوه إلى مكة، وهو صاحب العدل في آخر الزمان، وأصحابه يقال لهم: «الغرباء». قال له معاوية: «قلت الصواب إن شاء الله، وإن كلامك طيب وشفاء لما في الصدور». ولا شك أن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن عبيد أمام معاوية. أما تعليق معاوية على كلامه فلا يحتاج إلى إنكار من أحد فإنه أوهى مما يحتاج إليه الإنكار. وينسب إلى عبيد أنه قال[3]: «وقد ذكرناها في كتابنا هذا». وهذه العبارة كبيرة الأهمية، لأنها تدل على أن القائل كان يتصور هذه الأخبار كتاباً لا مجالس سمر، مما قد نستنتج منه أن الكتاب لم يكن مجالس حقيقية، وإنما مؤلف على صورة المجالس. لو أضفنا كل هذا إلى

(1) ٤٠١، ٤٠٧، ٤١٠، ٤١١ وغيرها.
(2) ٣٢٣.
(3) مجلة الثقافة الإسلامية عام ١٩٢٧.

ما لاحظناه على العنوان والمقدمة، لخرجنا بأن الكتاب من جمع ابن هشام، وأنه عمل فيه ما عمل في سيرة ابن إسحاق، أو أنه دخلته عناصر غريبة كثيرة، بعضها مصرح بنسبتها، وبعضها غير مصرح.

ولكن الأستاذ كرنكو يذهب إلى أبعد من ذلك، فيصرح بأن عبيد ابن شرية شخص خيالي لا وجود له، وأن الكتاب من تأليف ابن هشام أو البرقي أو محمد بن إسحاق، مكملاً به المؤلف ما ينقص كتاب وهب بن منبه من أخبار. ويستدل على ذلك بتلك الأخبار التي سميناها غريبة عن الكتاب وغيرها من الأدلة، ومنها عدم ورود ذكر لعبيد في كتب الرجال. ونحن لا نستطيع أن نذهب معه إلى هذا الحد، كما لا نستطيع أن نرفض رأيه يقيناً فعدم ورود إسم عبيد في كتب المحدثين دليل على أنه لم يرو الحديث، وليس بدليل على عدم وجوده. ولعل هذا الرأى غريب، لأنه كان من المنتظر من رجل مثل عبيد، عنى بالتاريخ الجاهلي، أن يعنى كذلك بالتاريخ الإسلامي فيؤدي ذلك بالمحدثين إلى الكلام عنه، ولو في باب الضعفاء من المحدثين، كما أننا لو قلبنا صفحات كتاب المعمرين[1] نجد القصة التي يروون أنها جرت بينه وبين معاوية، تروى بأشكال مختلفة، ولكن متقاربة، على أنها حدثت لأفراد آخرين غيره من المعمرين. فهذه الدلائل تغرينا على السير إلى جانب كرنكو. ولكن الأمر اليقيني

(١) أبو حاتم السجستاني: كتاب المعمرين ٧، ٨٣، ٦٧، ٨٧.

الذي لا يخامرنا فيه شك، أن الكتاب، بهذه الصورة الراهنة، ليس من تأليف عبيد بن شرية.

وهذه فقرة من الكتاب تبين لنا أسلوب عبيد، قال[1]:

«قال معاوية: «فمن ملك بعده [بعد ذي القرنين]»؟.

قال: «ملك بعده ملكيكرب بن أسعد بن تبع الأكبر بعد أبيه، وكان رجلاً ضعيفاً، لم يكن يغزو أحداً حتى مات ولم يبعث جيشاً. فأما أهل اليمن فيزعمون أنه كان يتحرج من الدماء. وأما أهل الرأي والمعرفة والبصر بالأمور فإنهم يقولون: لم يكن ذلك منه إلا عن قلة التجربة وقلة الأنفة وصغر الهمة، لأنه لم يحدث دعوة في ملكه، ولم يعبر عن دين ولا طريقة أحد ممن قبله.

قال معاوية: «وما تعبير حال الملك»؟

قال عبيد: «يا أمير المؤمنين، لم يكن يغير من شيء يفعله آباؤه، ولا زال شيئاً من جبروت الملك ولا أحدث تواضعاً، ولا قرباً من الناس، ولا زال عن تجبره وعتوه، وأشد أمره باليمن لا يجاوز أرض اليمن إلى غيرها بلد عرب أو عجم».

قال معاوية: «فكيف ملكهم يا عبيد، وكيف استقام لهم أمرهم على تلك الحال؟»،

قال عبيد: «لأنهم أحبوا الدعة والسكون، وكانوا قد ملوا الغزو والحروب، وكثرة المسير في البلدان.

---

(1) ٤٣٩.

قال معاوية: «فكم ملكهم على هذا المنوال؟».

قال: «ملكهم خمساً وثمانين سنة».

قال معاوية: «فمن ملك بعده؟».

قال عبيد: «ملك إبنه تبع أسعد بن ملكيرب....».

هذه هي الكتب التي ترجح بينها الرأى في اختيار الكتاب الأول في الظهور، ثم ظهرت كتب السير والمغازي التي تتناول حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بالدرس. وقد رأينا أن من عوامل ظهور هذه الدراسة جمع الأحاديث، سواء ما تناول الناحية الفقهية أو ما تناول الناحية التاريخية من حياته، بدافع من الرغبة الدينية. وكذلك كان العرب ينظرون إلى النبي نظرتهم إلى بطل من الأبطال وحدهم وهيأهم لفتح الأمم، فعنوا بتاريخه كما عنوا بتاريخ أبطالهم في الجاهلية. ولا ننسى مع ذلك أنهم أرادوا أن يضعوا الرسول صلى الله عليه وسلم بإزاء موسى وعيسى اللذين يفخر بهما أهل الكتاب، وألفوا عنهما الكتب، وأحاطوهما بالقصص الصحيحة وغير الصحيحة. كل أولئك وغيره اجتمع فأثمر كتب المغازي والسير، التي تعتبر بداية التأليف العلمي في التاريخ لأنها كانت تستند إلى الأحاديث التي كان يراعى فيها الدقة إلى أبعد غاية، فأسبغت الأحاديث دقتها على التاريخ.

ولذلك نشعر للوهلة الأولى بأنا نستند إلى أساس علمي وثيق حتى لو سلمنا في نفس الوقت بشيء من الشك في بعض الأحاديث التي تناولت العهد المكي خاصة من حياة الرسول. وقد ترك هذا

الإرتباط بالأحاديث أثراً لا يمحى في أسلوب التأليف التاريخي، إذ كثرت مواطن التشابه بين النوعين. وكانت المدينة موطن هذه الدراسة، فلم يختص أحد بالتأليف في المغازي والسير قبل القرن الثاني من الهجرة خارجها.

ابان بن عثمان

أول من اشتهر بالتأليف في المغازي أبان بن عثمان بن عفان المتوفي عام ١٠٥ هـ أو قبله. وكان أبان من علماء الحديث والفقه أيضاً. يقول ابن سعد في حديثه عن المغيرة بن عبد الرحمن[١]: «وكان ثقة قليل الحديث، إلا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخذها من أبان بن عثمان، فكان كثيراً ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها». وكان المغيرة هذا في جيش مسلمة بن عبد الملك الذي توجه لحرب الروم عام ٩٦ ـ هجرية ـ، واسترجعه عمر بن عبد العزيز في عام ٩٩ هـ[٢]. ولذلك لا يمكن للمغيرة أن يأخذ المغازي إلا عن أبان بن الخليفة عثمان، وليس عن أبان بن عثمان البجلي الشيعي الذي عاش بعد ذلك التاريخ بجيل أو اثنين[٣].

ويبدو أن هذه المغازي التي رواها المغيرة عن أبان ليست كتاباً بالمعنى الدقيق، وإنما هي مجموعة من المواد المتعلقة بحياة النبي.

---

(١) ابن سعد: الطبقات ٥: ١٥٦.
(٢) تاريخ الطبري ٢: ١٣٠٥، ١٣٤٦.
(٣) هوروفتس: المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف.

ويظهر أن هذه الأخبار ضاعت، ولم يأخذ عنها أحد من كتّاب السير المتأخرين. فلا يأخذ عنه ابن إسحاق ولا الواقدي ولا ابن سعد (في الجزء المخصص للسيرة من طبقاته). أما خبر أسر العباس وبعض بني هاشم الذي يرويه ابن سعد[1] عن أبان، عن معاوية بن عمار، عن جعفر بن محمد (المتوفي عام ١٤٨ هـ فإنه يتضح من الإسناد أنه لا يقصد أباننا هذا وإنما أبان البجلي الشيعي.

ولكن ابن سعد يذكر أبان بن الخليفة عثمان خارج السيرة حين يورد الكلمات الأخيرة التي تفوه بها عمر بن الخطاب عند وفاته. وقد سمعها أبان من والده[2]. ويذكره ابن قتيبة أيضاً في الشعر والشعراء[3] على أنه راوى الخبر القائل بأن معاوية اشترى البردة التي أعطاها النبي لكعب بن زهير، مكافأة له عن قصيدته.

بانت سعاد...

وأن الحكام كانوا يلبسونها في الأعياد. وفيما عدا ذلك لا يوجد لأبان ذكر في كتب التاريخ، وإن كانت كتب الحديث تكثر من ذكره.

وهاك الخبر الذي أورده ابن سعد من رواية أبان:

«عن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان، عن أبيه، عن عثمان بن

(١) ابن سعد: الطبقات ٤: ٢٩ القسم الأول.
(٢) ابن سعد الطبقات ٣: ٢٦٢ القسم الأول.
(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١٠٦.

عفان، قال: أنا آخركم عهداً بعمر، دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عبد الله بن عمر، فقال له: ضع خدي بالأرض. قال: فهل فخذي والأرض إلا سواء؟ قال: ضع خدي بالأرض لا أم لك، في الثانية أو في الثالثة. ثم شبك بين رجليه، فسمعته يقول: ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي، حتى فاضت روحه.

قال: أخبرنا قبيصة بن عقبة، قال: (نا) سفيان، عن عاصم بن عبيد الله قال: حدثني أبان بن عثمان، عن عثمان، قال: آخر كلمة قالها عمر حتى قضى: ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي، ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي، ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي».

عروة بن الزبير

عروة بن الزبير المتوفي عام ٩٤ هـ من معاصري أبان الذين ألفوا في التاريخ. ولم يقتصر عروة على الرواية الشفوية، بل دون بعض الأحداث التي طلبها منه عبد الملك بن مروان، أو ابن أبي هنيدة، الذي كان في بلاط الوليد، في رسائل بعثها إليهما. وقد وصل إلينا بعض هذه الرسائل في صفحات ابن إسحاق، والواقدي، والطبري.

تتناول رسالة عروة الأولى إلى عبد الملك هجرة الحبشة[١]، وتتناول الثانية موقعه بدر[٢]، والثالثة تتناول فتح

(١) تاريخ الطبري: ١: ١١٨٠.
(٢) نفس المرجع ١٢٨٤

مكة[1]. وتناول عروة أيضاً وفاة خديجة وهجرة النبي والصحابة إلى المدينة، وخبر زواج النبي من أخت الأشعث بن قيس، وقد روى هذه الأخبار إبنه هشام. أما الرسالة الأخرى لابن أبي هنيدة فرواها الزهري وتتناول المناسبة التاريخية للآية العاشرة من السورة الستين[2].

وتمثل كتابات عروة المشار إليها أقدم المدونات التي وصلت إلينا عن بعض الحوادث الخاصة في حياة النبي، كما تمثل أقدم آثار الكتابة التاريخية العربية. ولا تذكر المراجع القديمة أي كتاب ألّفه عروة عن المغازي، ولكن حاجى خليفة يقول: إنه أول من صنّف في المغازي[3]. ولم يعن عروة بجمع الأخبار عن جميع حياة النبي فحسب، بل عنى أيضاً بحوادث الخلفاء الأولين أيضاً، فتراه يعالج وقعه القادسية واليرموك وبعض حوادث فتوح الشام[4]. ويعني عروة أيضاً بتاريخ الزبيريين ولذلك نرى جميع أخبار الحزب الزبيري وحروبه وفتنه مروية عنه في الكُتب التاريخية مثل الطبري وحلية الأولياء أو الكتب الأدبية مثل الأغاني[5].

---

(١) نفس المرجع ١٦٣٤.

(٢) ابن هشام: السيرة ٣: ٣٤٠. والطبري: التفسير ٨: ٤٢.

(٣) كشف الظنون ٥: ٦٤٦.

(٤) الطبري: تاريخ ١: ١١٨٥، ١١٩٩، ١٢٤٢ أو غيرها.

(٥) أنظر فهرست الطبري والأغاني والفصل المخصص لعبد الله بن الزبير في الحلية.

وتمتاز كتابات عروة بأنها لا تهمل الإسناد إهمالاً تاماً، كما أنها لا تعنى به عناية متشددة، فهو أحياناً لا يذكره وأحياناً يذكره. ولذلك يكون من الخطأ أن نتهم عروة بتهمة إغفال الأسانيد، وإنما نقول إن الأسناد أصبح عادة في ذلك الوقت، ولكنه لم يصبح ضربة لازب على كل مؤلف في التاريخ. وتمتاز كتاباته أيضاً بأنها تعنى بالإشارات القرآنية إلى الحوادث الإسلامية، فتحاول شرحها. كما أشرنا قبل، بل إنه يتجاوز ذلك إلى استعمال الألفاظ القرآنية كتاباته، لتشير إلى مدلولها القرآني مثل استعماله لكلمة الفتنة في حديثه عن الهجرتين الحبشية والمدنية متبعاً الآية الأربعين من السورة الثامنة. ولا يعنى عروة بالأحاديث وحدها، وإنما يعنى أيضاً بالوثائق المكتوبة مثل رسالة النبي إلى أهل هجر، وإلى زرعة بن ذي يزن، وإلى عبد الله بن جحش. وعلى الرغم من فقه عروة ودينه فإنه لم يكن خصمًا للشعر، بل ينثره في الحوادث على لسان المشتركين فيها مثله في ذلك مثل النموذج المعروف عن التاريخ الجاهلي. ولكن يبدو أن هذا التدين كان له أثره في ناحية أخرى، تلك هي خوفه من إبداء رأيه في الحوادث، وإنما يتبع المأثور والحديث كما يقول إبنه هشام[1]. ولعل ذلك هو الذي جعله يروي في تاريخه بعض الأخبار التي لا يستطاع تصديقها بسهولة، وربما كانت هذه الأخبار من أثر أجنبي، يهودي أو نصراني.

---

(١) ابن حجر: التهذيب ٧: ١٨٣.

وهذه إحدى رسائل عروة التي أرسلها إلى عبد الملك بن مروان[1]:

«ثنا أبان العطار قال: ثنا هشام بن عروة، عن عروة: أنه كتب إلى عبد الملك:

أما بعد:

فإنك كتبت إلى في أبي سفيان ومخرجه، تسألني كيف كان شأنه؟.

كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في قريب من سبعين راكباً من قبائل قريش كلها، كانوا تجاراً بالشام فأقبلوا جميعاً معهم أموالهم وتجارتهم، فذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك، فقتلت قتلى، وقتل ابن الحضرمي في ناس بنخلة، وأسرت أسارى من قريش فيهم بعض بني المغيرة وفيهم ابن كيسان مولاهم، أصابهم عبد الله بن جحش وواقد حليف بن عدي بن كعب في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعثهم مع عبد الله بن جحش، وكانت تلك الواقعة هاجت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش، وأول ما أصاب به بعضهم بعضاً من الحرب، وذلك قبل مخرج أبي سفيان وأصحابه إلى الشام.

ثم إن أبا سفيان أقبل بعد ذلك ومن معه من ركبان قريش مقبلين من الشام، فسلكوا طريق الساحل. فلما سمع بهم رسول

(١) تاريخ الطبري ١: ١٢٨٤.

الله صلى الله عليه وسلم ندب أصحابه، وحدثهم بما معهم من الأموال، وبقلة عددهم، فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه، لا يرونها إلا غنيمة لهم، لا يظنون أن يكون كبير قتال إذا لقوهم. وهي التي أنزل الله عزّ وجلّ فيها «وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم». فلما سمع أبو سفيان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معترضون له، بعث إلى قريش أن محمداً وأصحابه معترضون لكم، فأجيروا تجارتكم. فلمّا أتى قريشاً الخبر، وفي عير أبي سفيان من بطون كعب بن لؤي كلها، نفر لها أهل مكة، وهي نفرة بني كعب بن لؤي، ليس فيها من بني عامر أحد إلا ما كان من بني مالك بن حسل. ولم يسمع بنفرة قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه، حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم بدراً. وكان طريق ركبان قريش من أخذ منهم طريق الساحل إلى الشام. فخفض أبو سفيان عن بدر، ولزم طريق الساحل، وخاف الرصد على بدر. وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى عرس قريباً من بدر. وبعث النبي صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام في عصابة من أصحابه إلى ماء بدر، وليسوا يحسبون أن قريشاً خرجت لهم. فبينا النبي صلى الله عليه وسلم قائم يصلي إذ ورد بعض روايا قريش ماء بدر، وفيمن ورد من الروايا غلام لبني الحجاج أسود، فأخذه النفر الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الزبير إلى الماء، وأفلت بعض أصحاب العبد نحو قريش. فأقبلوا به حتى أتوا به رسول الله (ص)، وهو في معرسه، فسألوه عن أبي سفيان وأصحابه لا

يحسبون إلا أنه معهم. فطفق العبد يحدثهم عن قريش ومن خرج منها، وعن رؤسهم ويصدقهم الخبر، وهم أكره شيء إليهم الخبر الذي يخبرهم، وإنما يطلبون حينئذٍ بالركب أبا سفيان وأصحابه، والنبي صلى الله عليه وسلم يصلي: يركع ويسجد، ويرى ويسمع ما يصنع بالعبد. فطفقوا إذا ذكر لهم أنها قريش جاءتهم ضربوه وكذبوه، وقالوا: إنما تكتمنا أبا سفيان وأصحابه فجعل العبد إذا أذلقوه بالضرب، وسألوه عن أبي سفيان وأصحابه، وليس له بهم علم، إنما هو من روايا قريش، قال: نعم هذا أبو سفيان. والركّب حينئذٍ أسفل منهم، كما قال الله عزّ وجلّ: «إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركّب أسفل منهم. . .» حتى بلغ «أمراً كان مفعولاً». فطفقوا إذا قال لهم العبد: هذه قريش قد أتتكم ضربوه، وإذا قال لهم: هذا أبو سفيان تركوه. فلما رأى صنيعهم النبي صلى الله عليه وسلم إنصرف من صلاته وقد سمع الذي أخبرهم. فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده، إنكم لتضربونه إذا صدق وتتركونه إذا كذب» قالوا: فإنه يحدثنا أن قريشاً قد جاءت، قال: «فإنه قد صدق، قد خرجت قريش تجير ركابها». فدعا الغلام فسأله فأخبره بقريش، وقال: لا علم لي بأبي سفيان فسأله: «كم القوم؟» فقال: لا أدري والله، هم كثير عددهم. فزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أطعمهم أول من أمس؟» فسمى. رجلاً أطعمهم، فقال؛ كم جزائر نحر لهم؟ قال: تسعْ جزائر. قال: فمن أطعمهم أمس.

فسمى رجلاً. فقال: «كم نحر لهم؟» قال: عشر جزائر، فزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». فكان نفرة قريش يومئذٍ خمسين وتسعمائة.

فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم فنزل الماء وملأ الحياض، وصفّ عليها أصحابه، حتى قدم عليه القوم. فلما ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً قال: «هذه مصارعكم». فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم قد سبقهم إليه ونزل عليه، فلما طلعوا عليه زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «هذه قريش قد جاءت بجلبتها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني» فلما أقبلوا استقبلهم فحثا في وجوههم التراب فهزمهم الله. وكانوا قبل أن يلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبي سفيان والركْب الذين معه أن ارجعوا، والركب الذين يأمرون قريشاً بالرجعة بالجحفة، فقالوا: والله لا نرجع حتى ننزل بدراً فنقيم به ثلاث ليالٍ، ويرانا من غشينا من أهل الحجاز، فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا. وهم الذين قال [فيهم] الله عزّ وجلّ: «الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس» فالتقوا هم والنبي صلى الله عليه وسلم، ففتح الله على وسوله، وأخزى أئمة الكفر، وشفى صدور المسلمين منهم».

وإذا أحببنا أن نعرف طريقة عروة في التأليف من هذه الرسالة نجده يعني في سرده الغزوة بالمقدمات التي سبقتها وأدت إلى

وقوعها، ويعني في أثناء السرد بإقامة الأدلة على صحة ما يقول من الآيات القرآنية، ونجده يشير إلى الأشياء التي لا يطمئن إليها، أو يخاف مسئوليتها بكلمة «زعموا»، كما حدث في روايته عدد قريش والأقوال المعزوة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن يبدو أنه كانت تأخذه أحياناً حماسة السرد، فينساق وراء الموضوع الرئيسي، ويترك بعض التفاصيل، فيرجع إليها بعد ما ينتهي، ويقول مثلاً: «وكانوا قبل أن يلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبي سفيان..».

هذا ما نستطيع أن نستخلصه من هذه الرسالة، إلى جانب تذوقنا لأسلوبه البسيط الذي لا يخلو من فصاحة عربية غير متكلفة، بل عاطفة صادقة يحسها القارىء في ثنايا الوصف.

وهب بن منبه

أما وهب بن منبه المتوفي عام ١١٠ هـ - فليس من المدينة، ولكن من ذمار بجوار صنعاء عاصمة اليمن، ولا تذكره كتب السيرة القديمة على أنه أحد رواة السيرة، ولكن حاجي خليفة[1] يقول عنه إنه جمع المغازي، وقد تبين صدقه، إذا اكتشف بيكر becker بين مجموعة أوراق بردى شت رينهاردت - schott reinhardt المحفوظة في هيدلبرج، مجلداً يحتوي على قطعة من هذه المغازي. وتتناول قطعة هيدلبرج تاريخ العقبة الكبرى،

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون رقم ١٢٤٦٤.

واجتماع قريش في دار الندوة، والهجرة، وغزوة بني خيثم، مما يدلنا على أن وهباً تناول الفترة المكية والمدينة من حياة الرسول. ويقول بعض من رأى هذه القطعة إن وهباً يهمل الإسناد، ويعني بالشعر[1].

وحفظت حلية الأولياء لوهب قطعتين من المغازي، تتناول الأولى فتح مكة[3]، والثانية وفاة النبي صلى الله عليه وسلم[2]، وهو يذكر الإسناد في القطعتين. وهذه هي القطعة الثانية يقول فيها:

«فلما كان يوم الأحد ثقل في مرضه، فأذن بلال بالأذان ثم وقف بالباب، فنادى: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، الصلاة يرحمك الله، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت بلال، فقالت فاطمة: يا بلال، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم مشغول بنفسه. فدخل بلال المسجد، فلما أسفر الصبح قال: والله لا أقيمها أو أستأذن سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فرجع وقام بالباب ونادى: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله الصلاة يرحمك الله. فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت بلال، فقال: أدخل يا بلال، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشغول بنفسه، مر أبا بكر يصلي بالناس.

---

(١) هوروفتس: كتب المغازي الأولى ومؤلفوها.
(٢) الأصبهاني: الحلية ٤ : ٧١.
(٣) نفس المرجع ص ٧٣.

فخرج ويده على أم رأسه وهو يقول: واغوثاه بالله، وانقطاع رجائي، وانقصام ظهري، ليتني لم تلدني أمي، وإذ ولدتني ليتني لم أشهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا اليوم. ثم قال: يا أبا بكر، ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك أن تصلي بالناس. فتقدم أبو بكر رضي الله عنه للناس، وكان رجلاً رقيقاً. فلما نظر إلى خلو المكان من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتمالك أن خر مغشياً عليه، وصاح المسلمون بالبكاء... فلما كان في يوم الإثنين اشتد به الوجع، وأوحى الله تعالى إلى ملك الموت عليه السلام، أن أهبط إلى حبيبي وصفّي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وأرفق به في قبض روحه، فهبط ملك الموت عليه السلام فوقف بالباب شبه أعرابي، ثم قال: السلام عليكم، يا أهل بيت النبوة...».

وهذه الفقرة طويلة مفصلة. ولكن قارئها لا يسعه إلا أن يشك فيها الشك الشديد، فأسلوبها مما لا نألفه في أساليب تلك الفترة، وعبارتها غريبة عن الرجل العربي الذي يعيش في ذلك العصر، وقد لعب فيها الخيال دوراً كبيراً. ولذلك إذا صحت نسبتها لوهب، فإننا لا نستطيع أن نطلق عليه لفظ مؤرخ، بل قصاص.

ويجب أن نذكر أن وهباً إتجه في التاريخ وجهة جديدة لم تعن بها مدرسة المدينة قبله، تلك هي عنايته بأخبار أهل الكتاب، وتاريخ وطنه اليمن. فالأستاذ هوروفتس ينسب لوهب «كتاب

المبتدأ» الذي عزاه إبن النديم لحفيده عبد المنعم[1]. ويرى أن العنوان يشير إلى مبتدأ الخلق. ولكننا لا نرى داعياً لهذا، ونرى أنه ربما جمع عبد المنعم مواد كتابه مما في كتب وهب الأخرى، وخاصة كتابه في تاريخ اليمن، الذي عنى فيه بتاريخ الخليقة والأنبياء. ولم يعن وهب بالأنبياء وحدهم بل بالصالحين أيضاً في كتاب يسمى «كتاب العباد[2]». ولعل الكتاب الذي ينسبه إليه حاجي خليفة في «الأخبار»[3] هو نفس كتابه عن العباد.

ويعتمد وهب في جميع هذه الكتب على أخبار أهل الكتاب، يهود ومسيحيين، إعتماداً شديداً. ولقد اشتهر بذلك حتى قيل عنه إنه قرأ ٧٠ أو ٧٣ أو ٩٢ من كتبهم المقدسة[4]. ولكننا نميل إلى الشك في هذا العدد، ولعله استقى أغلب هذه الأخبار من أهل الكتاب الذين اتصل بهم في موطنه اليمن، الذي اشتهر منذ الجاهلية باستيطان هاتين الديانتين وتصارعهما فيه. بل بلغ الأمر بهذه الشهرة إلى حد أن نسب إلى وهب كتاب يسمى «الإسرائيليات»، كما يقول حاجي خليفة[5]. ولكن ياقوتاً يقول عنه إنه كان «كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات[6]»، أي يستعمل اللفظ وصفاً لمصادر وهب، لا

(١) ابن النديم: الفهرست ٩٤.
(٢) إبن سعد: الطبقات جـ ٧ من القسم الثاني ص ٩٧.
(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون ٤: ٥١٨.
(٤) ابن سعد: الطبقات ٥: ٣٩٦.
(٥) حاجي خليفة: كشف الظنون ٥: ٤٠.
(٦) ياقوت: معجم الأدباء ٦: ٢٣٢.

عنواناً لأحد كتبه. ولذلك يرجح أن كتاب الإسرائيليات هذا عبارة عن مجموعة الأخبار التي استقاها وهب من أهل الكتاب، جمعها بعض المتأخرين، وزاد عليها حتى صارت كتاباً، عرفه حاجي خليفة بذلك الإسم. وقد قام بتلك المحاولة ثانية شوفان chauvin[1] ولكنها محاولة مخفقة، لأن هذه الأخبار غير كافية لتكوين كتاب، ولأن هذه الأخبار دخلها كثير من الإنتحال حتى عارض بعضها بعضاً، وكثر فيها الخلط والتهويش. ولا يلام وهب كل اللوم على هذا الخطأ والتعارض، لأن الأخبار الصحيحة عنه تطابق أخبار أهل الكتاب مطابقة كبيرة. وما شذ عن ذلك فيرجع إلى تغيير نفس المصادر التي استقى منها وهب، أو إلى تغيير منه لتلائم الذوق الشعبي، أو هي من عمل المتأخرين الذين غيروا فيها لتلائم القصص الشعبي.

والأمر الثاني الذي يمتاز به وهب هو كتابة تاريخ وطنه اليمن الخرافي القديم في رسالة خاصة تسمى «كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم»، كما يقول ياقوت[2]. ولسوء الحظ لم يصل إلينا هذا الكتاب، وإنما وصل إلينا كتاب يسمى «كتاب التيجان في ملوك حمير»، وهو من رواية أبي محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبي إدريس بن سنان عن جدّه لأمه وهب بن منبه. ولكن كل من يتصفح

(١) النسخة المصرية من ألف ليلة وليلة ٥٧.
(٢) ياقوت: معجم الأدباء ٦: ٢٣٢.

الكتاب يستطيع أن يرى بسهولة أنه ليس كله لوهب، وإنما تصرف فيه إبن هشام تصرفه في سيرة إبن إسحاق، وإن كان لا يصرح بذلك كما فعل في السيرة. ولذلك لا نستطيع أن نعرف مدى تصرفه، غير أننا يمكننا أن نعرف الإضافات التي جلبها من روايات أخرى، وصرّح بسندها. فهو يروي أخباراً عن محمد بن إسحاق عن طريق تلميذه البكائي الذي روى السيرة[1] أو عن طريق تلميذه الآخر المسمى أبا عباد الهمداني[2]؛ ويروى عن أبي مخنف[3]، وعن محمد بن السائب الكلبي[4]، وعن عبيد بن شرية[5]، وعن بعض المحدثين[6]. ولكنه إلى جانب ذلك يروي مجموعة كبيرة من الأخبار التي لا يسندها إلى أحد[7]. وهي بالطبع ترجع إلى رواة مختلفين قد يكون منهم وهب نفسه[8]. والأمر الجدير بالملاحظة أننا نرى جلّ الأخبار قبل الصفحة المئة من الكتاب منسوبة إلى وهب، ولكنها تقل شيئاً فشيئاً حتى تكاد تنعدم بعد ذلك.

والكتاب كما قلنا يتناول تاريخ اليمن. فيبدأ بخلق العالم،

---

(١) كتاب التيجان ٧٥، ١١٥، ١٢٨ وغيرها.
(٢) ٢٥١.
(٣) ١٢٥، ١٨٠.
(٤) ١٣٢، ٢١٣، ٢٤٠.
(٥) ٢٣٧.
(٦) ٦٤، ١١١، ١٣٥، ١٦٤، ٢٣٧، وغيرها.
(٧) ٨١، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، وغيرها.
(٨) ٢٥٥، وأنظر حلية الأولياء ج ٤.

وقصص آدم وأولاده، حتى عهد نوح وأولاده. ثم يلتفت وهب إلى العرب من الساميين، وإلى عرب الجنوب خاصة، ويسرد تاريخ أقيالهم وملوكهم ويعنى بغزواتهم في أرجاء الأرض، ويذكر هجرة عمرو بن عامر من اليمن إلى شمال بلاد العرب، كما يذكر بعض ملوك غسان.

ولا يختلف كتاب التيجان لوهب كثيراً عن كتاب عبيد بن شرية في طريقة العرض. فهما يطلقان لخيالهما العنان في تصوير الوقائع. ويلونان الحوادث التاريخية بأطياف خيالية قد تخرج بها إلى حد الخيال والأسطورة. كما يدخلان في تاريخهما الكثير من الحوادث التي لا أصل لها، ولذلك يصدق عليهما إسم القصص التاريخي أكثر من أي نعت آخر. ونحن نعدهما امتداداً للحركة القصصية التاريخية التي كانت موجودة في الجاهلية. ولعل الذي نسخ الكتابين في نسخة واحدة رجل حكيم، عرف منهما مواطن الشبه هذه، التي تجعلنا لا نجد بينهما كبير فرق.

ويكشف هذا الكتاب عن بعض خصائص وهب، فهو مثل الجاهليين مغرم بالشعر، مكثر من روايته، وأكثر هذا الشعر منحول سخيف ركيك. ينسب وهب إلى آدم أنه قال حين قتل هابيل[1]:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح

(1) ١٧.

وجـاورنا عـدو ليس يهدي لعـين لايمـوت فـأستـريـح
أيـا هابيـل يا ثمـر الفؤاد أبعد العين مسكنك الضريح
محـل نخلق الأجسـاد فيـه ويبلى عنده الوجه الصبيـح
فعيني لا تجف عليك سحا وقلبي الدهر محزون قريـح

ولكن هناك بعض أشعار جيدة بالنسبة للسابقة، ينسب مثلاً إلى عبد شمس أنه قال يوصي إبنه بابليون[1]:

ألا قل لبابليـون والقول حكمـة
ملكت زمام الشرق والغرب فاجمل
وخذ لبنى حامٍ من الأمر وسطه
فإن صدفوا يوماً عن الحق فاقتل
وإن جنحوا بالقول للرفق طاعـة
يريدون وجه الحق والعدل فاعدل
ولا تظهرن الرأي في الناس يجتروا
عليك به واجعله ضـربة فيصـل
ولا تـأخـذن المـال من غـير وجهـه
فإنك إن تـأخذه بـالرفق تسهـل

ويروي وهب أيضاً بعض آشعار ينسبها للنابغة الذبياني، ولبيـد، والأعشى، وامرىء القيس[2]. أمـا بيت النابغـة

(١) ٤٩
(٢) ٧٦، ٧٧، ١١٥.

ومقطوعة لبيد فهما في ديوانيهما، وأما مقطوعتا الأعشى وامرىء القيس فلم أجدهما في ديوانيهما المطبوعين.

ولقد تأثر وهب بالقرآن أيضاً في القصص التي ورد ذكرها فيه، فحاول أن يتبع خطاه، وأن يستند إلى آياته، يقول في وصفه الخلق[1]: «فاضطرب الماء وهاج، فاصطفق، فأزبد، فصار أرضاً، فخلق الله الحوت والبحر من ذلك الزبد. ثم رفع الله السماء وهي دخان «فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين» وخلق الملائكة، وأوحى في كل سماء أمرها، أسكنهم السماوات يسبحون ويهللون ويقدسون الواحد القهار، وخلق الجبال في الأرض أوتاداً».

وتظهر عند وهب نزعة إسلامية واضحة، فهو يعني بجلب آراء العلماء المختلفين في بعض المواضع، مثل اختلافاتهم في خلق الجنة، وفي قتل قابيل هابيل[2].

وأسلوب وهب في كتابه بسيط صريح منطلق لا تثقله أي حلى، ولا يقف عند زينة، ولكن نجد عنده القطع الأرجوانية التي تكلمنا عنها في أثناء حديثنا عن عبيد، تلك القطع هي رسائل المشتركين في الحوادث وخطبهم وشيء من حوارهم.
قال وهب: ولما أراد الله إتمام أمره، وإظهار العربية، أنزل كتاباً مقطعاً وهو:

---

(١) ٣.
(٢) ٢٦.

شهد الله بالحق، بسم الله الرحمن الرحيم، شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم، قائمًا بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. حكم الحي القيوم أنه إذ اعتكر الزمان، وكثر النسيان، وحكم في ذرية آدم الشيطان وغلب هذا اللسان، فعبدت الأوثان، وقتل الولدان: أن يبعث الله محمداً بالعدل والحق والبيان، يصدع بالقرآن، وينصر الإيمان، زمان ظهور السودان، نبي لا نبي بعده ولم يخلف الله وعده[1]».

وتذكرنا هذه القطع الأرجوانية بالشاعر الشعبي في المقاهي في مصر، إذ نراه يقص حكايته بأسلوب بسيط منطلق، حتى يأتي إلى حديث أبطال قصصه، وخطبهم، ورسائلهم، فنرى أسلوبه يرتفع ويجمل، بل نراه يفخم من لهجته، وينطلق بها متعملاً متروياً. ولا تكشف هذه القطع الأرجوانية من الحلى إلا السجع والإزدواج وتوازن العبارات. ويبدو أن وهبا كان عارفاً باللغة وأساليبها الأدبية. يقول في شرحه للآية «لا عاصم اليوم من أمر الله» في أثناء كلامه عن نوح: [2] «والعرب تجعل فاعل في موضع مفعول قال الله: «في عيشة راضية» و «ماء دافق» أي مرضية ومدفوق.

وأخيراً نجد في تاريخ وهب ما وجدناه في مواعظه من إسرائيليات تنفذ إليه وتشيع فيه، وخاصة أن الموضوعات التي

(١) ٢٦.
(٢) ٢٤.

تناولها كانت تساعد على هذا الإنتشار. وأظهر ما تتضح هذه الإسرائيليات في الجزء الأول من الكتاب الذي يعالج فيه المؤلف كيفية خلق العالم وآدم وأولاده حتى نوح عليه السلام وأبنائه الثلاثة. كما يشتد وضوحها أيضاً في تناوله لقصة بلقيس وسليمان. ويبدو أن وهبا كان يعرف العبرانية والسريانية، فنراه يذكر الإسم وترجمته العربية، فقينان «عبراني تفسيره باللسان العربي مشترى[1]» و «مهليل»: عبراني وتفسيره باللسان العربي ممدوح[2].» و «مالالى [سرياني] وتفسيره بالعربي مسيح الله[3]».

ويلاحظ عليه الأستاذ كرنكو krenkow وهو يصف غزوات ذي القرنين قائلاً:[4] «هذا الشعب ينفذ إلى جابرصا، وهذا الشعب يصل إلى هراة ومرو وسمرقند، وهذا ينفذ إلى جاجا وبلخا وحابلجا وبارد، وأرض يأجوج ومأجوج»، يلاحظ عليه ملاحظة جديرة بالإهتمام. يقول[5]: هذه الأسماء كلها محرفة في الأصل، والمراد بجاجا مدينة جاج فيما وراء النهر. وهي بجيمين فارسيين، وقد عربت العرب إسم هذه المدينة فقالت؛ شاش. وبلخا محرف من بلخ بالخاء، وحابلجا لعله محرف من جابلق.

(١) ٢١.
(٢) ٢١.
(٣) ٢١.
(٤) ٩٩.
(٥) هامش ٩٩.

والظاهر أن هذه الأسماء كلها مأخوذة من كتاب باللغة الآرامية بحيث جاء في آخرها ألف. وأما بارد فلا أدري أي بلد يعني بهذا». فلو صدقت هذه الملاحظة لكان وهب يعرف الآرامية، أو يأخذ عمن يحسنها.

ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل نراه يذكر بعض اللغات الأخرى مثل الحميرية حين يقول[1]: وكان يقال لحمير «العرنجج»، والعرنجج: العتيق، وحين يقول[2]: «ذو شدد بلغة حمير كقولك: ذو شطط»، ومثل اللغة الحامية حين يقول[3]: «الشام إسم أعجمي من لغة بني حام، وهو طيب تفسيره بالعربي».

قد نخرج من هذه الشواهد ونحن على ما يشبه الإطمئنان من معرفة وهب باللغة العبرية والسريانية، وفي نفسنا شيء من معرفته باللغة الآرامية والحميرية. ومما يزيدنا يقيناً بمعرفته اللغات غير العربية ذلك القول في كثير من المراجع بأنه قرأ الكتب، أو العددمنها، وأن تفسير للكلمات العبرية والسريانية كان صحيحاً في أغلبه، وربما استمد وهب بعض معارفه مما كان شائعاً من قصص بين أهل الكتاب، وإن لم يوجد في إنجيل أو توراة.

هذا هو وهب بن منبه في «كتاب التيجان» صورة مكبرة مهذبة من عبيد بن شرية، صورة أحاطت بما تركه عبيد من الأخبار، و

(١) ٥٦.
(٢) ٧٨.
(٣) ٤٩.

وأكثرت من الإضافات الأجنبية عن العرب الجاهليين، وهي إضافات أملاها الإسلام والقرآن، وإضافات أملاها الإتصال الشديد بأهل الكتاب، وتقبل المسلمين لمعلوماتهم ومعارفهم. وإذن فوهب هو المؤرخ القصاص، الذي تغني بمفاخر وطنه، وأشاد بها ملحمة نثرية بسيطة صريحة، تلبس وشياً من الشعر والقرآن والرسائل والخطب والأحاديث المحبرة المجملة، وقد صاغها الخيال في إطار أدبي جذاب.

وهذه فقرة من كتاب التيجان[1]:

«ملك الهمال بن عاد.

المعروف بذي شدد، ملك متوج.

وإنه لما مات لقمان بن عاد صار الملك إلى أخيه الهمال بن عاد بن الملطاط ابن السكسك بن وائل بن حمير. والهمال بن عاد هو ذو شدد، فلما صار إلى همال ذي شدد دخل إلى المغارة التي دفن فيها أخوه شداد بن عاد، فأخرج التاج وتتوج به. وكان لقمان غيّبه في تلك المغارة، لأنه لم يكن متوجاً، كان متواضع لله. فلما ولى الهمال بن عاد أخذ الملك أخذاً شديداً، فولي ذلك حيناً من الدهر ثم مات: وإنما قيل له ذو شدد بلغة حمير كقولك ذو شطط بن عاد بن لمناخ أي ذو عطاء.

وينسب حاجي خليفة[2] إلى وهب كتاباً آخر يسمى «كتاب

(١) ٧٨.
(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون ٤: ٣٨٧.

الفتوح». ولكن المؤرخين الآخرين لا يذكرون عنه شيئاً آخر.

عاصم بن عمر

نرجع إلى المدينة لنجد عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري المتوفي عام ١٩٩ أو ١٢٠ هـ وقد روى عاصم عن أبيه، واشتهر بأحاديثه عن حياة الرسول عامة حتى وصفه ابن قتيبة بأنه «صاحب السير والمغازي[١]»، وروى عنه محمد ابن إسحاق والواقدي.

وتوضح اقتباسات إبن سعد في طبقاته عناية عاصم بالفترة المكية من حياة الرسول، إلى جانب عنايته بالفترة المدنية. كما توضح مقتطفات الطبري أنه اهتم بتاريخ الخلفاء الراشدين، وخاصة أخبار فتنة عثمان. ويذكر عاصم سند رواياته في غالب الأحيان، ولكنه يهمله كثيراً أيضاً، ويتبع غيره في رواية الأشعار على ألسنة المشتركين في الحوادث[٢]. وإنما يمتاز بأنه لم يقتصر على جمع الحوادث وروايتها، بل كان يبدي رأيه فيها، ويعلق عليها[٣].

وهذا مثال من أخباره في وصف بيعة العقبة[٤]:

«قال إبن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة:

---

(١) ابن قتيبة: المعارف ٢٣٦.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢: ٦٧، ٤: ١٣.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢: ٨٩.
(٤) نفس المرجع ٢: ٨٨.

إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري، أخو بني سالم بن عوف: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن؛ فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة[1] الأموال، وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة. قالوا: إبسط يدك فبسط يده، فبايعوه.».

وأما عاصم بن عمر بن قتادة فقال: والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أعناقهم.

الزهري

أشهر مؤرخي الجيل التالي هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفي عام ١٢٤ هـ. وقد أمره خالد بن عبد الله القسري بكتابة السيرة له[2]، كما أمره أيضاً بكتابة كتاب عن القبائل العربية الشمالية، ففعل ولم يتمه[3]. ومن الواضح أن

(١) نهكة الأموال: نقصها.
(٢) الأصفهاني: الأغاني ١٩: ٦٩.
(٣) نفس المرجع ٥٩.

قرة بن عبد الرحمن يعني الكتاب الأخير بقوله: لم يكن للزهري كتاب إلا كتاب نسب قومه[1]. ويبدو أن الزهري كان واسع المعرفة بالأنساب، يقول عنه الليث[2]: «إن حدث عن العرب والأنساب قلت: لا يحسن إلا هذا». ويخبرنا الزهري نفسه أنه كتب «أسنان الخلفاء» لجدّه[3]، وهي عبارة عن قائمة يذكر فيها تاريخ وفاة الخلفاء وأعمارهم عند الوفاة، ومقدار ملكهم، كما يظهر من القطعتين اللتين اقتبسها منها الطبري. ونسب له شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي كتاباً يسمى «مشاهد النبي صلى الله عليه وسلم» رواه عنه يونس بن يزيد[4] ولم يصل إلينا من الزهري كتاب خاص مستقل في التاريخ، على الرغم من كثرة مادونه لنفسه أو للأمويين، حتى كثرت القصص عن هذا التدوين[5]. ولكن بعض المتأخرين جمع الأحاديث التي اقتطفتها من مدوناته كتب الأحاديث المتأخرة في مجلد سماه «الزهريات[6]».

ويبدو من الشذرات الباقية من كتابات الزهري في الطبقات خاصة أنه تناول حياة الرسول عامة، ولم يقصر نفسه على الغزوات الفعلية وحدها. وقد تسربت إلى أخباره الإسرائيليات،

(١) الذهبي: تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحاق ٦٨.
(٢) أبو نعيم: الحلية ٣: ٣٦٠.
(٣) الطبري: التاريخ ٢: ٤٢٨، ١٢٦٩.
(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ٨٨.
(٥) ابن سعد: الطبقات ٢: ١٣٥.
(٦) هو روفتس: كتاب المغازي الأولى ومؤلفوها ٦٧.

حتى قال عنه الليث[1]: «وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب لقلت: لا يحسن إلا هذا». ويعزي إلى الزهري الفضل في أنه كان أول من قارن بين الأحاديث المختلفة المصادر في موضوع واحد لإدماجها في حديث واحد إجماعي يصدره بأسماء الرواة مجتمعين[2]. وكانت هذه خطوة إلى الأمام في العرض التاريخي.
وكان الزهري أيضاً أول من عني بتدوين الأنساب، فاتجه بذلك وجهة جديدة في التاريخ. وقد سار الزهري على منوال غيره من المؤلفين في ذكر الإسناد تارة[3]، وحذفه أخرى[4]، وفي العناية بإدخال الشعر في أخباره[5].

وللزهري فضل كبير على الحركة التاريخية، إذ أنه نشر كتبه بين الجمهور، وحث على ذلك[6]. «عن يونس قال الزهري: إياك وغلول الكتب. قلت: وماغلولها؟ قال: حبسها عن أهلها[7]». وقد افتخر بنشر العلم فقال: «ماصبر أحد على العلم صبري، ولا نشره أحد نشري[8]».

وهذه فقرة من كتاب «أسنان الخلفاء» تظهر لنا طريقته فيه.

---

(١) أبو نعيم: الحلية ٣: ٣٦٠.
(٢) ابن هشام: السيرة ٣: ٣٠٩.
(٣) أبو نعيم: الحلية ٣: ٣٦٥.
(٤) ابن هشام: السيرة ١: ١٢، ٧٢، ٣٣٧ وغيرها.
(٥) ابن هشام: السيرة ٤: ٥٩، ٢٣٨ وغيرها.
(٦) أبو نعيم: حلية الأولياء ٣: ٣٦٦.
(٧) أبو نعيم: حلية الأولياء ٣: ٣٦٦
(٨) نفس المرجع.

قال الطبري[1]: «عن هشام بن الوليد المخزومي أن الزهري كتب لجدّه أسنان الخلفاء، فكان فيما كتب من ذلك:

«ومات يزيد بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين. وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، في قول بعضهم، ويقال ؛ثمانية أشهر».

وهذه فقرة من حياة الرسول في مكة تتناول مبعثه صلى الله عليه وسلم[2] «قال ابن إسحاق: فذكر الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها أنها حدثته: أن أول ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤ يا الصادقة، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤ يا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح. قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده».

وأسلوب الزهري ـ كما يبدو من هذه الفقرات ـ سهل منطلق جميل بسيط.

موسى بن عقبه

ينقضي جيل الزهري، ويظهر جيل آخر، كله من تلاميذه ونبدأ بموسى ابن عقبة المتوفي عام ١٤١ هـ. وهو من المشهورين بمعرفة المغازي، وألف فيها كتاباً رواه عنه ابن أخيه إسماعيل بن

(١) ٢: ٤٢٨.
(٢) ابن هشام: السيرة ١: ٢٤٩.

إبراهيم المتوفي عام ١٥٨[1] هـ وقد ضاع هذا الكتاب إلا شذرات نحاول أن نتبين صورته منها. ويبدو أنه كان أصغر حجمًا من كتب المغازي الأخرى، لأن مالك بن أنس يقول عنه[2]. «عليكم بمغازي موسى بن عقبة... فإنه رجل ثقة طلبها على كبر السن، ولم يكثر كما كثر غيره». وقد أكد بعضهم لألويس شبر نجر aloys' shprenger في دمشق أنه توجد منه نسخة هناك، ولكنه لم يستطع أن يراها[3].

ولكن وجدت في المكتبة البروسية الرسمية قطعة من هذه المغازي، ترجمها الأستاذ إدوارد سخاو edward sachaw إلى الألمانية في عام ١٩٠٤[4] ويتضح من هذه القطعة أن موسى لم يتناول المغازي بالمعنى الخاص بل تناول الهجرة أيضاً. وقد اقتبس ابن سعد كثيراً منه عن طريق أستاذه الواقدي[5]، وعن طريق ابن أخي موسى السابق ذكره[6]. وتكشف لنا هذه المقتطفات أن مغازي موسى كانت تحتوي على قوائم بالمهاجرين إلى الحبشة،

(١) ابن سعد: الطبقات ٥: ٣١٠.
(٢) ابن حجر: تهذيب التهذيب ١٠: ٣٦١.
(٣) كتب المغازي الأولى ومؤلفوها ٧١.
(٤) سخاو: القطعة البرلينية من مغازي موسى بن عقبة (تقرير عن أعمال المجتمع البروسي للعلوم عام ١٩٠٤).
(٥) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٤١، ٨: ١٠، ١١، ١٧١، ١٩٠، ١٩١ وغيرها.
(٦) نفس المرجع ٢: ١، ٣: ١ وغيرها.

وبالمشتركين في بيعتي العقبة، وبالمحاربين في بدر[١]، فتدعم قول ابن حجر بأنه كتب هذه القوائم عندما رأى شرحبيل بن سعد يدخل في البدريين من لم يشهد بدراً[٢]. وكان الطبري من الذين رجعوا إليه، فاقتبس منه أخباراً يشير أكثرها إلى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين، إلى جانب عهد الرسول[٣]. ويشير زيد بن عمر إلى أن موسى بن عقبة اهتم بالتاريخ الجاهلي أيضاً[٤].

نرى مما سبق أن موسى بن عقبة ينفرد عن المؤلفين قبله بعنايته الزائدة بالقوائم، وتدوينه لتاريخ الخلفاء الراشدين وبعض الأمويين، بل التاريخ الجاهلي أيضاً. ويختص بمراعاته أكثر من غيره لنظام الإسناد[٥]، وإن تركه أحياناً[٦]. ويعنى أيضاً بالأخذ عن مدونات من سبقه، مثل ابن عباس[٧] كما يعنى بالوثائق المكتوبة[٨]، ويقتبس بعض الأشعار[٩]، ويحاول ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً[١٠]. ويمتاز عروة أيضاً بعنايته بأخبار الحزب الزبيري. ولعل سبب ذلك أنه يكثر الرواية عن جدّه لأمه أبي

(١) ابن سعد: الطبقات ٢: ١، ٣: ١.
(٢) ابن حجر: تهذيب التهذيب ١٠: ٣٦١.
(٣) ابن سعد. الطبقات ٥: ٢٨٣.
(٤) أبو الفرج: الأغاني ٣: ١٦.
(٥) الطبري: التاريخ ١: ٢٥٠ ١٨٥١، ٢٠١٤ وغيرها.
(٦) الطبري: التاريخ ١: ٢٧٥٥.
(٧) ابن سعد: الطبقات ٥: ٢١٦.
(٨) البلاذري: فتوح البلدان ٨٠.
(٩) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٤١ وغيرها.
(١٠) هوروفتس: المغازي الأولى ومؤلفوها ٧٣.

حبيبة مولى الزبير بن العوام[1]، كما يروي عن علقمة بن وقاص الليثي الذي يبدو أنه كان في جيش الزبير وطلحة يوم الجمل[2].

وهذه فقرة من تاريخه تبين لنا طريقة تناوله وأسلوبه[3]: «موسى بن عقبة عن أبي حبيبة مولى الزبير قال: قال: لما قتل الناس عثمان رضي الله عنه وبايعوا عليّاً، جاء علي إلى الزبير، فاستأذن عليه، فأعلمته به، فسل السيف ووضعه تحت فراشه، ثم قال: إئذن له. فأذنت له، فدخل فسلم على الزبير، وهو واقف بنحوه، ثم خرج. فقال الزبير: لقد دخل المرء، ما أقصاه. قم في مقامه فانظر: هل ترى من السيف شيئاً؟ فقمت في مقامه، فرأيت ذباب السيف فأخبرته، فقال: ذلك أعجل الرجل. فلما خرج علي سأله الناس، فقال: وجدت أبّر ابن أخت وأوصله. فظن الناس خيراً، فقال علي: إنه بايعه».

ويظهر لنا في هذه الفقرة نظرة الحزب الزبيري لمسألة الخلاف بين علي والزبير، أكثر مما يظهر أي شيء آخر. وهذا ما يلاحظ على موسى في أغلب أخباره، التي يتبع فيها أخبار الزبيريين حتى عهد عبد الملك بن مروان.

سليمان بن طرخان

تنتقل الكتابة التاريخية إلى البصرة ليظهر فيها سليمان بن

(1) الطبري: التاريخ ١: ٢٩٨١، ٢٩٩٨ وغيرها.
(2) نفس المرجع ٣١٠٣، ٣١٣٧.
(3) نفس المرجع ٣٠٧٣.

طرخان المتوفي عام ١٤٣ هـ . ولم تذكر المراجع القديمة التي بين أيدينا أنه ألّف كتباً، وإن كنا نرى إسمه يتردد في الطبري. ولكن الأستاذ فون كريمر von kremer وجد مخطوطاً يحتوي على مغازي الواقدي التي لا تصل إلا إلى إجلاء بني النضير من المدينة، ثم تكمل بجزء من مغازي أبي المعتمر سليمان بن طرخان التيمي المسماة «السيرة الصحيحة كما يقول الناسخ[١]». وتبدأ سيرة سليمان بالكلمة الأولى في السطر ١٦ من الصفحة ٣٦٠ وتنتهي في الصفحة ٤٣٧. فهي تتألف من ٧٧ صفحة من النسخة المطبوعة.

ولا نستطيع من هذا الباقي من سيرته أن نحكم: هل تناول التاريخ الجاهلي، وتاريخ النبي في مكة، أو اقتصر على المغازي وحدها، وإن كان الأسم «السيرة» قد يجعلنا نميل إلى الظن بأنه تناول الفترة المكية من حياة الرسول أيضاً. ولكن الطبري يذكر له خبرين عن خلق آدم[٢]، وعن حرق إبراهيم[٣]، ثم لا يذكر له شيئاً في حياة الرسول، وإنما يرجع إليه ثانية في عهد عثمان، حيث يروي بعض ما حدث في الفتنة. ولا ندري لهذا سبباً: أكان الطبري غير واثق بمغازيه، أم لم تصل إليه، أم لم يؤلف سليمان مغازي، وهذه المغازي التي بين أيدينا محمولة عليه.

ويرى قارىء «سيرته» أن الأخبار موجزة مضغوطة منسقة

(١) فون كريمر: مغازي الواقدي ٤٣٨، والمقدمة ٢٣.
(٢) الطبري: التاريخ ١: ٩١.
(٣) نفس المرجع ٢٦٦.

منتظمة لا تكثر خلالها الفواصل والزوائد كما نرى عند غيره من المؤرخين، فهو لا يذكر الأسانيد، ولا يعني بالروايات المتعددة. وإنما يسير على رواية واحدة لا يتعداها. ويمتاز وصفه بالقوة والحياة، يشعر القارىء أنه مشرف على المعركة يرى الأبطال ويشاركهم أحاسيسهم وأفعالهم، كما يشعر بأن المؤلف لا يكتفي بمجرد وصف الأعمال وإنما يدقق فيها ويبسطها بسطاً صادقاً، يجعلنا نستطيع أن نتميز ما يدور في خلجات المؤمنين في كل موضع من المواضع. وكثيراً ما تكون هذه الإنفعالات في غير صالح المسلمين[1].

ولكننا نراه يأتي بروايات غريبة في الغزوات الكبيرة المعروفة، تخالف ما أجمع عليه المؤرخون الآخرون. ولنذكر على سبيل المثال ذلك الدور الذي قام به نعيم بن مسعود الأشجعي في غزوة الخندق. فسليمان يراه من الجواسيس على النبي، على حين يراه المؤرخون الآخرون من المؤمنين الذين خدموا النبي خدمة عظيمة، وساعد على تفريق كلمة المشركين واليهود بخداعهم. وكذلك يأتي بروايات مخالفة في غزوات بني قريظة والحديبية وخيبر ومؤتة ووفاة الرسول. أما المؤلفون الآخرون فلا يعنون بذكر رواياته على الرغم من اهتمامهم بسرد غيرها من الروايات الكثيرة. ولا ندري ما سبب هذا الإهمال، إلا أن هناك ظناً يخامرنا، وهو أن كثيراً من أخباره كان يصور المسلمين صوراً لا

(١) أنظر غزوة الخندق وغيرها.

ترضيهم أو لا ترضي بعضهم[1]. ويورد سليمان أخباراً عن العباس لا نجدها عند غيره من المؤرخين[2]. وهي كلها في جانب العباس، مما يغري المرء بالقول إنها من وحي العباسيين. ولكننا ـ بعد كل ذلك ـ نحب أن نشير إلى أن سليمان بن طرخان من المشهود لهم بالعدالة والفضل[3].

ويعنى سليمان بإيراد الآيات القرآنية[4]، وشرح مناسباتها التاريخية، والإعتماد عليها، كما يعنى أيضاً بالشعر[5]. ولكن هذا الشعر قليل متضائل بالنسبة لما عند غيره من الكتاب.

وهذه المغازي لها أهمية فوق كل ذلك، إذ أنها أقدم كتاب تاريخي يتناول حياة الرسول، سلم من الضياع، ووصل إلينا شبه كامل، فيما عدا الجزء الذي وجده بيكر من مغازي وهب. وهاك بعض الأمثلة التي تصور لنا طريقة تناوله للتاريخ، يقول في وصفه لموقعة الخندق[6]: «فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أتاه المشركون، فنزلوا به، فاقتتلوا قتالاً شديداً، بلغ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كل مبلغ فحصروهم حصاراً شديداً إرتاب منه المنافقون، وشكُّوا في نبي الله صلى الله عليه وسلم، وأساءوا اللفظ. فقام رجل من الأنصار

(١) أنظر غزوتي الخندق وخيبر.
(٢) ٩٢، ٤٣٣.
(٣) مقدمة فون كريمر ٥.
(٤) ٣٦١، ٣٦٤، ٣٧٢ وغيرها.
(٥) ٣٧٤، ٣٩٠، ٣٩٦، ٤٠٢ وغيرها.
(٦) ٣٦٣.

يقال له مغيث بن بشير، فقال: أوعدنا محمد أن يفتح قصور فارس والروم واليمن، ولا يتبرز أحدنا إلى الخلاء من رحله؟ والله لغرور: وتابعه على ذلك رهط من المنافقين، فأنزل الله تعالى؛ «وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وزعموا أن قبيلتين من الأنصار، بني حارثة بن الحارث وبني سلمة، هموا أن يخلوا مراكزهم، وقالوا: يا نبي الله، إن بيوتنا خلية، نخاف عليها السرق. فلهم يقول الله تعالى: «يقولون إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، إن يريدون إلا فراراً». وذكر في سورة أخرى فقال: «إذ همت طائفتان منكم أن تفتتلا، والله وليهما، وعلى الله فليتوكل المؤمنون». فقالوا بعد ذلك: ما نحب أن نهم بالذي هممنا به إذ كان الله ولينا.

ويظهر أسلوب سليمان في هذه الفقرة سهلاً بسيطاً سيالاً، حاراً، صادقاً، موجزاً.

وهذه فقرة مما اقتبسه الطبري من سليمان[1]: «أبو معتمر سليمان التيمي قال ثنا أبي قال ثنا أبو نضرة من أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري، قال: سمع عثمان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا، قال؛ فاستقبلهم وكان في قرية له خارجة من المدينة، أو كما قال، فلما سمعوا به أقبلوا نحوه إلى المكان الذي هو فيه، قال: وكره أن يقدموا عليه المدينة أو نحواً من ذلك، قال؛ فأتوه، فقالوا له: إدع بالمصحف، قال: فدعا بالمصحف، قال؛ فقالوا

(١) الطبري: التاريخ ١، ٢٩٦٣.

له: إفتح السابعة قال: وكانوا يسمون سورة يونس السابعة، قال: فقرأها حتى أتى على هذه الآية «قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزقٍ فجعلتم منه حراماً وحلالاً، قل الله أذن لكم أم على الله تفترون». قال: قالوا له: قف. فقالوا له: أرأيت ما حميت من الحمى، الله أذن لك أم على الله تفتري؟ قال: فقال: إمضه، نزلت في كذا وكذا. قال: وأما الحمى فإن عمر حمى الحمى قبلي لإبل الصدقة، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما زاد في إبل الصدقة، إمضه...».

ويلاحظ في هذه الفقرة، وفي فقرة ثانية في الطبري[1] تتناول تكملة الحادثة، الإكثار من اعتراض لفظ «قال» في السياق، مما لا نجد مثله كثيراً عند الطبري، مما يجعلنا نرجح أنه من خصائص كتاب سليمان الذي أخذ عنه الطبري، ولكن المغازي التي بين أيدينا ليس فيها هذا الإعتراض الكثير ونحن لا نستطيع أن نعمم هذا الحكم من فقرتين فحسب. لأن الفقرات الباقية في الطبري من القصر بحيث لا تظهر فيها هذه الظاهرة.

عوانه بن الحكم

من مؤرخي العراق أيضاً أبو الحكم عوانة بن الحكم الضرير الفقيه المتوفي عام ١٤٧ هـ أو ١٥٨ هـ. ونسب له ابن النديم[2]

(١) نفس المرجع ٣٠٠٦.
(٢) ابن النديم: الفهرست ٩١.

وبني أمية». وقد شك بعض العلماء في الكتاب الأخير، ونسبه لمنجاب بن الحارث التميمي المتوفي عام ٢٣١.

وروى عبد الله بن المعتز عن الحسن بن عليل العنزي أن عوانة كان عثمانياً يضع الأخبار لبني أمية. وترجح دائرة المعارف الإسلامية ذلك الرأي[١]. ولكن الهيثم بن عدى يروي خبراً عنه حين قتل محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة، وكيف أنه ترحم عليه وذكر فضله، مما يدل على أنه كان يظهر العثمانية تقية منه، وخاصة أنه في نهاية الخبر السابق يستفسر من الجالسين إذا ما كان أحد عيون الأمويين حاضراً، فلما يتأكد من عدم حضور أحد يمدح محمداً مدحاً رائعاً.

ولا تؤيد الأخبار الباقية لنا منه عند الطبري[٢] والبلاذري[٣] تلك التهمة، إذ لا يظهر فيها أي هوى للأمويين. ولعل الطبري والبلاذري لم يذكرا لنا تلك الأخبار التي تظهر فيها عثمانيته وأمويته ويجب أن نحترس في هذا الرأي لأننا نجد كثيراً من التهم توجه لعوانة تريد الحط من قدره، مثل تلك الأخبار التي تجعله لا يميز بين الشعر والقرآن[٤]، على الرغم من قولهم إنه كان عالماً بالشعر والفصاحة[٥]، وعلى الرغم من القصة السابقة التي يمدح

---

(١) ياقوت: معجم الأدباء ٦: ٩٤. ودائرة المعارف الإسلامية، مادة «عوانة».
(٢) الطبري: التاريخ ١: ١٨٢٧، ٢٧٥٥، ٣٢٠٤ وغيرها.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٦٢، ٩٤، ١٨٢، ٢٤٠ وغيرها.
(٤) ياقوت: معجم الأدباء ٦: ٩٤.
(٥) نفس المرجع ٦: ٩٥.

فيها محمد بن عبد الله بالآية «التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله»، مما يدل على معرفة بالقرآن أيضاً. كل هذه التهم تدلنا على أنه كان كثير الخصوم، وإن لم نستطع معرفتهم، وسبب خصومتهم له، وإن خامرنا الظن بأن عثمانيته المزعومة ربما كانت سبب هذه العداوة.

ولا تتناول المقتطفات الباقية من تاريخ عوانة شيئاً من حياة الرسول، وإنما تبدأ ببيعة أبي بكر، وتصف الردة وفتح العراق، وفتح بلدان فارس المختلفة مثل المدائن وجلولاء وهمذان، ووقعة الجمل، وحروب علي ومعاوية، والحسن ومعاوية، وتاريخ العراق، وقتل الحسين، وثورة عبد الله بن الزبير، وتنتهي الأخبار بخروج ابن الأشعث وقتل ابن القرية[1].

ونرى عوانة في هذه المقتطفات لا يعنى بالأسانيد كثيراً، ويبحث عن المواد في كل مكان حتى ليأخذها من أقارب المشتركين في الحوادث. ويعنى كذلك بإيراد الأشعار.

وهذه فقرة من أخباره[2]: «يحي بن آدم عن عوانة بن الحكم عن جرير بن يزيد عن الشعبي قال، قال عبد الله بن مسعود: لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه، لولا أن من الله علينا بأبي بكر: اجتمع رأينا جميعاً على ألا

(١) أنظر فهرست الطبري والبلاذري.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٩٤.

نقاتل على بنت مخاض وابن لبون، وأن نأكل قرى عربية، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، وعزم الله لأبي بكر رضي الله عنه على قتالهم، فوالله ما رضي منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية. فأما الخطة المخزية فأن أقروا بأن من قتل منهم في النار، وأن ما أخذوا من أموالنا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم.

وأسلوب عوانة منساب منطلق، يعني في بعض الفقرات بالحوار، وبالشعر، وما يدور بين أبطال الحوادث.

محمد بن إسحاق

أخيراً يظهر محمد بن إسحاق المتوفي عام ١٥٠ هـ تقريباً، فيؤلف كتاباً يغطي به على جميع هؤلاء المؤرخين المتقدمين، ويجذب أنظار المتأخرين على الدوام. ويسمى كتاب ابن إسحاق هذا «كتاب المغازي»، ولم يصل إلينا الكتاب بصورته الأصلية، ولكن وصل إلينا قسط عظيم منه في سيرة ابن هشام. ويقال إن مكتبة كوبريلي بالأستانة تحتوي على مخطوطة من النسخة الأصلية من الكتاب، ولكن الأستاذ هوروفتس يرى أننا إذا ما عاينا هذه المخطوطة وفحصناها فحصاً دقيقاً، وجدناها نسخة من كتاب ابن هشام لابن إسحاق[١].

ويقال[٢] إن سبب تأليفه المغازي أنه دخل ذات يوم على

(١) هورفتس: المغازي الأولى ٨٢.
(٢) ابن هشام: السيرة ص ط.

المنصور وبين يديه إبنه المهدي، فقال له المنصور: أتعرف هذا يا بن إسحاق؟ قال: نعم، هذا ابن أمير المؤمنين. قال: إذهب فصنّف له كتاباً منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا. فصنّف ابن إسحاق هذا الكتاب، فقال له المنصور: لقد طولته، يا بن إسحاق، إذهب فاختصره. وحفظ المنصور الكتاب الكبير في خزانته.

ولكن الأستاذ فيك[١] fück يرى أن ابن إسحاق لم يؤلف كتابه بأمر من الخليفة، ولا في بغداد أو الحيرة، وإنما في المدينة قبل إقامته لدى العباسيين ويستدل على ذلك بأن رواته الذين أخذ عنهم جميعاً مدنيون ومصريون، ولا يذكر فيهم أحد من العراقيين، كما نجد أحد تلاميذ ابن إسحاق المدنيين يروي - الكتاب، وذلك هو إبراهيم بن سعد[٢] المتوفي عام ١٨٤ هـ بل نرى في الكتاب حوادث ما كان يرضى لذكرها العباسيون مثل تدوينه إشتراك العباس في بدر إلى جانب الكفار، وأسر المسلمين له[٣]، ذلك الخبر الذي حذفه ابن هشام فيما بعد خوفاً من العباسيين. وربما أجرى ابن إسحاق بعض التغييرات الإضافية الطفيفة في الكتاب إرضاء للخليفة مثل رواياته عن مناصرة العباس للإسلام، أو اعتناقه له سراً[٤]. وإن كانت هذه

(١) فيك: محمد بن إسحاق.
(٢) هوروفتس: المغازي الأولى ٨١، ٨٢.
(٣) الطبري: التاريخ ٢: ١٣٤١، ١٣٤٤، وابن سعد: الطبقات: ٧٤.
(٤) ابن هشام: السيرة ٢: ٢٠١.

الرويات أيضاً رواها عنه تلميذه المدني إبراهيم بن سعد، مما يجعلنا نعتقد أنه لم يجرها في العراق للمرة الأولى.

وعلى الرغم من عدم وصول النسخة الأصلية من الكتاب إلينا، وعلى الرغم من حذف ابن هشام لأجزاءٍ كثيرة منه، فإننا نستطيع تكوين صورة قريبة من الكمال عنه، بفضل المقتطفات العديدة عند الطبري والمؤرخين المتأخرين، والتي قد تكون محذوفةعند ابن هشام. ويساعدنا على تكوين الصورة تصريح ابن هشام بما أجراه من تغييرات في الكتاب، إذ يصدره بقوله(1): «وأنا إن شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولده، وأولادهم لأصلابهم، الأول فالأول، من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يعرض من حديثهم، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة للإختصار إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب، مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه، لما ذكرت من الإختصار، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته، ومستقصٍ إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه

(1) نفس المرجع ١: ٤.

بمبلغ الرواية له، والعلم به». وكان ابن هشام دقيقاً في تصريحه بكل ما يفعله من زيادة أو حذف على الدوام، وفيما عدا هذه التغييرات لا يجري أي عمل من عنده في النص الأصلي، وإنما يرويه كما هو.

ويظن أن الكتاب كان في أصله مقسمًا إلى ثلاثة أجزاء: المبتدأ، والمبعث، والمغازي، أما المبتدأ فيتناول التاريخ الجاهلي. وقد خص ابن هشام هذا الجزء بالحذف أكثر من غيره، ولكن الطبري حفظ جزءاً كبيراً منه، في تاريخه وتفسيره وخاصة ما يتعلق بالأنبياء، كما حفظ الأزرقي أخباراً كثيرة تتناول تاريخ مكة القديم، ووعى كتاب عبيد بن شرية بعض أخباره كما ذكرنا من قبل.

وينقسم هذا الجزء إلى أربعة فصول: يتناول أولها تاريخ الرسالات السابقة على الإسلام منذ خلق العالم حتى ظهور عيسى. ويرجع ابن إسحاق في هذا الفصل إلى وهب بن منبه، وابن عباس، وأهل الكتاب، بل التوراة ذاتها، إلى جانب رجوعه إلى القرآن. ويورد فيه أخبار أهل الكتاب، والقبائل العربية التي ذكرها القرآن مثل عاد وثمود، بل التي لم يذكرها القرآن مثل طسم وجديس. ويتناول الفصل الثاني تاريخ اليمن في العصور الجاهلية. وسبب عنايته بهذا التاريخ وجود الإشارات العديدة في القرآن إليهم، مثل إشاراته إلى أهل الأخدود، وأصحاب الفيل. وقد وعى ابن هشام والطبري جزءاً كبيراً من هذا الفصل. وأما الفصل الثالث فيتناول القبائل العربية وعبادة الأصنام. ويتناول

الرابع أجداد النبي المباشرين وديانة أهل مكة. ولا يعني ابن إسحاق في هذا الجزء بالأسانيد إلا نادراً، وأغلبها في الفصل الأول.

أما المبعث فيشمل حياة النبي في مكة، والهجرة، وربما العام الأول من نشاطه في المدينة، ونراه في هذا الجزء يصدر الأخبار الفردية بموجز حاولها، ويدوّن مجموعات كاملة من القوائم: فقائمة لمن أسلم من الصحابة بدعوة أبي بكر(1)، وأخرى بالمهاجرين إلى أرض الحبشة(2)، وثالثة لمن عاد من أرض الحبشة لما بلغهم إسلام أهل مكة(3)، وأخرى وأخرى مما يطول حصره. ويوجد في هذا الجزء وثيقة إنفرد بها ابن إسحاق من بين المؤرخين الآخرين، وهي معاهدة النبي الأولى، التي كتبها لينظم التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود، بعد هجرته إلى المدينة مباشرة. ويعني ابن إسحاق في هذا الجزء بالترتيب الزمني للحوادث، كما تزداد عنايته بالأسانيد التي يرجع معظمها إلى شيوخه المدنيين.

وأخيراً المغازي، وهي تتناول حياة النبي في المدينة منذ أول سهم أطلق في الحرب إلى وفاته صلى الله عليه وسلم. وتملأ الغزوات الحربية هذا الجزء، فلا يستطيع المؤلف أن يفصل الكلام إلا عن مرض النبي الأخير ووفاته. ويسبر ابن إسحاق في هذا الجزء على خطة رسمها لنفسه ولم يتجاوزها، إذ يبدأ الخبر

---

(1) ابن هشام: السيرة ١: ٢٦٧.
(2) نفس المرجع ٣٤٤.
(3) نفس المرجع ٢: ٣.

بملخص حاوٍ لمحتوياته، ثم يتبعه بخبر من جميع الأقوال التي أخذها من رواته، وفي النهاية يكمله بما جمعه هو نفسه من المصادر المختلفة. وتكثر القوائم أيضاً، عمن حضر بدراً من المسلمين، ومن استشهد من المسلمين يوم بدر، ومن قتل ببدر من المشركين، وما ماثل ذلك في الغزوات المختلفة. ويلتزم ابن إسحاق هنا إيراد الأسانيد، وجميع رواته من المدينة، وأهمهم الزهري وعاصم بن عمر وعبد الله بن أبي بكر بن حزم، الذين أمدوه بما ساعده في ترتيبه الزمني للحوادث. وقد زاد ابن إسحاق المادة التي أخذها منهم بما جمعه بنفسه من غيرهم من الرواة، ومن أقارب المشتركين في الحوادث المؤرخة.

وقد لقيت هذه السيرة منذ ظهورها عناية كبيرة، فرواها خمسة عشر تلميذاً لابن إسحاق كما يقول فيك[1]. أما ابن هشام فكان يرجع إلى رواية البكائي. وأما الطبري فكان يرجع في الغالب إلى رواية سلمة بن الفضل المتوفي عام ١٩١ هـ وأما ابن الأثير في «أسد الغابة» وابن حجر في «الإصابة» فكانا يرجعان إلى رواية يونس بن بكير[2] المتوفي عام ١٩٩ هـ ثم كان الناس إلى اليوم يرجعون إليها في نسخة ابن هشام بعد ظهور هذه.

ونرى ابن إسحاق يرجع في سيرته إلى العلماء من غير المسلمين في أخباره عن الحوادث اليهودية والمسيحية والفارسية. ولذلك

---

(١) هوروفتس: المغازي الأولى ٨٧.
(٢) نفس المرجع ٨٧.

نراه يذكر بين رواته «بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول[1]» أو «اهــل التـوراة[2]» أو «من يســوق الأحـاديث عن الأعاجم[3]». ويعد هذا تحولاً خطيراً من مدرسة المدينة التي لم تكن تقبل مثل هذه الأخبار، ولا مثل هؤلاء الرواة فابن إسحاق أول من اقترب بمدرسة المدينة إلى مدرسة اليمن في قبول هذه الأخبار، حتى إنا نراه يأخذ بعض الأخبار عن وهب بن منبه، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيعطينا فقرات من العهدين القديم والجديد مترجمة ترجمة حرفية.

وعني ابن إسحاق بالرجوع إلى الوثائق والمدونات، كما حاول أن يذكر الأسانيد. ولكن مادته الكثيرة المتنوعة اضطرته إلى توسيع دائرة رواته، وقبول بعض الأحاديث غير المرضية والإخلال بنظام الأسانيد، مما أزعج مدرسة الحديث وهالها، فكانت له التهم، وسحبت منه ثقتها[4].

وينفرد ابن إسحاق عن باقي المؤرخين بكثرة الأشعار التي أدخلها في كتابه كثرة أفزعت معاصريه ومن بعدهم، إذ لم يكن يتحقق من صحة الشعر بل يدخل ما يحصل عليه دون تحقيق. ولذلك نجد عنده أشعاراً منتحلة ظاهراً مثل تلك التي قبلت في

---

(١) الطبري: ١٤٠.
(٢) الطبري: التاريخ ١: ١٤١، ٤١٣.
(٣) ابن هشام: السيرة ١: ٣٢٨.
(٤) ياقوت: معجم الأدباء ٦: ٣٩٩.

عهد عاد وثمود[1]. ولكن بعض العلماء[2] اعتذر عنه بأنه اقتبس هذه الأشعار لتزيين تاريخه لا لصحتها عنده فهو ما كان يتمسك بأنها صحيحة لو ثبت له غير ذلك، ولكن فن الكتابة التاريخية كان اعتاد إدخال الشعر للتحلية منذ الجاهلية. كما أنه اعتذر هو عن نفسه بأنه ليس عالماً بالشعر وأنه يدوّن ما يحمل إليه[3].

ولكن ابن إسحاق غاية في النزاهة في تاريخه، يدوّن آراء المذاهب المتعادية بكل أمانة وبدون تحيز، حتى لقد روى أشعار المشركين في هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم[4]، فاضطر ابن هشام أن يلطف من حدة بعض هذه الأشعار[5].

ويمتاز ابن إسحاق بأنه لم يكن أول من عرض فترات حياة الرسول باتساق في كتابه فحسب، بل وسع أفق هذه السيرة، فجعلها تاريخاً للرسالة الإلهية عامة، فأدخل فيها تاريخ الأنبياء المتقدمين. ويتحلى كذلك بتلك الخصيصة التي تحلّى بها أستاذه الزهري من قبل، وأعني بها العناية بربط الأحاديث بموجز بينها ويحوي ما تشتمل عليه من أخبار، والعناية بتأليف خبر عام موحد من الروايات المختلفة. وهو يعطينا في بعض الأحيان تعْليقات عن الحوادث برأيه. ويظهر ابن إسحاق في سيرته كاتباً ساحراً،

(١) الطبري: التاريخ ١: ٢٣٦ وما بعدها.
(٢) هوروفتس: كتب المغازي الأولى ومؤلفوها ٩٣.
(٣) ابن سلام: طبقات الشعراء ٤.
(٤) أنظر شعر ابن الزبعري في بدر وأحد في السيرة.
(٥) ابن هشام: السيرة ٢: ٢٤٤.

يعرف كيف يجمع مادته بطريقة تجذب انتباه القارىء على الدوام، ويصور لنا الشخصيات التي يصفها بحيث تبرز أمامنا كأننا نراها رأى العين. ومهما اختلفت وجهات النظر في سيرته، فإنها تقف فوق مستوى سامٍ جداً، بل تزداد قيمتها حين نعرف أنها من أقدم الكتب العربيةِ النثرية التي وصلت إلينا.

ويبدو أن ابن إسحاق لم يكتف بتاريخه الجاهلي. بل أراد أن يكمل التاريخ الإسلامي أيضاً، «فألف كتاب الخلفاء[1]». ولكن هذا الكتاب فقد، ولم يصل إلينا منه غير فقرات عند الطبري، تدوّن حوادث وقعت في عهد الخلفاء الراشدين، وعثمان خاصة، بل بعض حوادث العهد الأموي أيضاً[2]. ومع ذلك ليست هذه الفقرات كافية لأن تعطينا صورة واضحة نحكم بها على الكتاب.

وهذه فقرة من مغازيه في وصف غزوة مؤتة[3]: «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة إلى مؤتة في جمادي الأولى سنة ثمان. واستعمل عليهم زيد ابن حارثة، وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس.

---

(١) ابن النديم: الفهرست ٩٢. وياقوت: معجم الأدباء ٦: ٤٠١.
(٢) الطبري: التاريخ ١: ١٨٢٣ وما بعدها. والبلاذري: فتوح البلدان ٢٧٨ ٣١٢، ٣٢٧ وغيرها.
(٣) ابن هشام: السيرة ٤: ١٥.

فتجهز الناس ثم تهيأوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف. فلما حضر خروجهم ودّع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم. فلما ودّع عبد الله ابن رواحة مع من ودّع من أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى، فقالوا: ما يبكيك يا بن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه يقرأ آية من كتاب الله عزّ وجلّ، يذكر فيها النار «وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتمًا مقضياً» فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود. فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين. فقال ابن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

الفصل الثالث

مَظاهِرُ الكِتابةِ التارِيخيَّة

رأينا أن الكتابة التاريخية العربية نشأت من تيارين مختلفين:

١ ـ تيار قديم يتألف من القصص الخيالية والأساطير الشعبية المأثورة عن قدماء العرب التي كان يرويها القصاص المتنقلون عن العرب الشماليين وأنسابهم وأيامهم، وعن ملوك العرب الجنوبيين وفتوحاتهم. وهي قصص لحمتها وسداها الخيال المبالغ، تكثر بها الأشعار، التي كانت في بعض الأحيان وخاصة في الأيام المحور الذي تدور عليه القصة النثرية، حتى إنه عندما نسيت تلك الأشعار، اندثرت تلك القصص، فاضطر القصاص إلى استحداث أشعار جديدة وإحاطتها بقصص مبتكرة عن هذه الأيام. ولا تعتمد هذه القصص على توقيت تاريخي لحوادثها، بل تتناول الأحداث الهامة، والحروب خاصة، دون ربط بينها، ودون أن تنظم البحث في المجرى التاريخي العام. ويتمثل هذا التيار الخيالي في العهد الإسلامي في عبيد بن شرية ووهب ابن منبه.

٢ ـ والتيار الثاني جديد استحدثه الإسلام، وهو تيار السيرة،

الذي يتكون من أخبار دقيقة مضبوطة، متفرعة من علم الحديث، ولذلك نالها ما ناله من نقد وتمحيص. وكانت هذه السيرة تتألف من القصص الصحيحة والخيالية التي أحاطت بشخص الرسول بسبب إجلال المسلمين له، وأخذ المؤرخون يجمعون هذه القصص ويركبونها، ويربطون بينها، مستعينين بالآيات القرآنية.

وقد لعب التيار الأول، وخاصة فرع الأيام منه، دوراً في هذا التيار، وخاصة في الفترة المدنية من حياة الرسول التي تمتلىء بالغزوات. ويظهر هذا الدور في طريقة تناولهم لهذه الغزوات، فإنها تشبه طريقة تناول القصاص القدماء لأيام الجاهليين. بل لعل الرسول صلى الله عليه وسلم كان يمثل في السير دور البطل في قصص الأيام الجاهلية. ونذكر إلى جانب هذا كله آثاراً يهودية ومسيحية، بل آثاراً فارسية ضئيلة، وجدت أيضاً في هذه السيرة. وتبين هذه الآثار جميعاً عند وهب بن منبه الذي تعتبر كتاباته روايات تاريخية. ولكن تيار السيرة كان له صبغة علمية دقيقة في المدينة أكثر منها في أي موطن آخر، لارتباط المؤرخين فيها بالأحاديث الصحيحة أكثر من المؤرخين الآخرين، ويظهر هذا التيار العلمي الدقيق عند أبان وعروة.

وهكذا نرى أن الكتابة التاريخية نشأت نشأة عربية خالصة، لا يد فيها للفرس أو اليونان. فهذه الكتابة بجميع صورها استمرار لما كان يوجد في الجاهلية، أو تفرع لعلم الحديث العربي الخالص. وكان أوائل المؤرخين عربا سواء كانوا من الجنوب

مثل عبيد، أو من الشمال كأبان وعروة. ولكن هذه الحركة العربية ما لبثت أن تأثرت بمؤثرات خارجية من أهل الكتاب والفرس، بل صار جميع المؤرخين من الموالي في أواخر القرن الثاني من الهجرة. وإذن فالتاريخ الإسلامي يخالف كثيراً من العلوم الإسلامية الأخرى في نشأته العربية الخالصة، ولكنه لا يلبث أن يقع في أيدي الموالي مثل جميع العلوم الإسلامية الأخرى.

وأخذت هذه التيارات التاريخية المختلفة في التطور، فنجد التاريخ القبلي الجاهلي أو الأيام والأنساب يعنى بها في العراق خاصة، ويدخلها علماء اللغة في نطاق أبحاثهم إذ أنها تعينهم على فهم الأشعار التي يريدون جمعها وشرحها. ويتمثل لنا جهد اللغويين في هذه الناحية في نقائض أبي عبيدة المتوفي في عام ٢٠٩ هـ، التي يروي فيها أخبار الأيام، ويطيل في ذلك. أما العناية بالأنساب فتتمثل في محمد بن السائب الكلبي المتوفي عام ١٤٦ هـ وغيره من النسابين.

ونجد القصص الخرافية الشعبية تستمر في الوجود، فيظهر عبيد بن شرية الذي يعنى بتاريخ القبائل البائدة من العرب، ووهب بن منبه الذي يعنى بتاريخ اليمن وأهل الكتاب، ويسير على النمط الجاهلي المأثور في القصص الشعبية الخرافية المغرقة في الخيال.

وأما تاريخ السير والمغازي المولود في المدينة، والمتفرع من

الحديث فقد تأثر به في بادىء الأمر، فظهر الإسناد عند أول كاتبين فيه، وهما أبان وعروة، وإن لم يصر ضربة لازم بل كانا يتجاهلانه كثيراً. وأخذت السير والمغازي تتطور سريعاً، فنجد الزهري يخطو بالتاريخ خطوة بارعة إلى الأمام، إذ يحاول الربط بين الأحاديث، بل يحاول تأليف خبر واحد من الأحاديث المختلفة بعد إدماجها، كما يحاول أن لا يجعل من التاريخ وقفاً على فئة معينة من الناس، وإنما ينشره بين الجمهور كله. هذا إلى جانب عنايته بالأنساب، وخاصة أنساب قومه.

ويشرع مؤرخو المدينة في الإلتفات إلى ميادين تاريخية أخرى على يد عروة وموسى بن عقبة، إذ يمدان البحث فيشمل تاريخ الخلفاء الراشدين، ثم الأمويين، وكان ذلك الإمتداد من تأثير السيرة أيضاً.

ويتوج هذا التطور بمحمد بن إسحاق المؤرخ الحقيقي، الذي يمثل نهاية تطور السيرة ذات النموذج الديني عند المحدثين، وذات النموذج الملحمي عند القصاص الشعبيين، والذي يمد بحثه إلى آفاق بعيدة لم يرها المدنيون من قبل، وأعنى بها تاريخ الجاهلية، وتاريخ النبوات قبل محمد عليه الصلاة والسلام، وتاريخ الخلفاء بعده. فمحمد بن إسحاق هو المؤرخ الذي تتمثل فيه كل التيارات التاريخية الموجودة في عصره.

وتمتاز الحركة التاريخية العربية بعدة ظواهر، نحاول أن نسجل بعضها هنا عبر ما ناقشناه من قبل. وأول هذه الظواهر أن

المؤرخين لم يكونوا موظفين حكوميين، وإنما كانوا أناساً عنوا بالتاريخ لمجرد الرغبة الشخصية، وحباً في ذلك العلم. ولذلك نجدهم يؤلفون ما يحلو لهم من كتب، وعما يحلو لهم من حوادث، دون أن تصدر إليهم الأوامر بتناول أمر من الأمور، وترك آخر، إلا في أحوال نادرة كان يلتمس الحكام فيها من المؤرخ معالجة بعض الأمور التي تلذ لهم. وضمن لهم ذلك حرية الآراء، وصدق التناول. والنزاهة في معالجة الأحداث، وخاصة أن أكثر هؤلاء المؤرخين كانوا رجال فقه وحديث.

وهاك مثالاً يبين مقدار إستقلال هؤلاء المؤرخين، وشجاعتهم في الثبات على آرائهم، وعلى ما يعتقدونه صدقاً. روى الشافعي عن عمه قال[1]: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك، فقال: من الذي تولى كبره منهم؟ يشير الآية في حديث الإفك، قال: عبد الله بن أبي بن سلول، فقال: كذبت، هو علي، يا بن شهاب، من هو؟، قال: عبد الله بن أبي، فقال: كذبت، هو علي، قال: أنا أكذب، لا أبا لك، فوالله لو ناداني مناد من السماء: إن الله أحل الكذب ما كذبت. حدثني سعيد بن المسيب، وعروة، وعبيد الله، وعلقمة بن وقاص، عن عائشة: إن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي. قال: فلم يزل القوم يغرون به، فقال له هشام: إرحل، فوالله ما ينبغي لنا أن نحمل عن مثلك، قال: ولم؟ أنا اغتصبتك على نفسي أو أنت

---

(١) الذهبي: تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحاق ٧٢.

اغتصبتني؟ فخل عني، قال: لا، ولكنك استدنت ألف ألف. فقال: قد علمت، وأبوك قبلك، إني ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبيك.

وكان هؤلاء المؤرخون علماء يدرسون تلاميذ من الشعب، ويؤلفون كتبهم لهؤلاء التلاميذ، وللشعب أيضاً، غير معتمدين على الخلفاء في الغالب، إلا عند الشدائد.

الظاهرة الأخرى هي صحة الأخبار العربية عن الحوادث الإسلامية خاصة، وقد أتتهم هذه الصحة من الطريقة التي عالجوا بها هذه الأخبار، فهم لم يأخذوا إلا عن العدول الثقات، واتبعوا في ذلك ما أتبعه علماء الحديث في نقدهم، فسلمت لهم مجموعة كبيرة من الحوادث. وأتت هذه الصحة أيضاً من ابتكارهم التوقيت الكامل، حتى كانوا يوقتون الحوادث بالأيام والشهور والأعوام. وذلك مما يدعو إلى التدقيق في الأخبار وصحتها. حقاً إن هذا التوقيت بدأ ضعيفاً مضطرباً، ولكن الروايات المختلفة من المصادر المتباينة جعلتهم يطمئنون إلى بعض التواريخ، ويستطيعون أن يتحققوا من صحتها.

ولكن هذه الروايات الكثيرة التي كانت تعتمد غالباً على الذاكرة سببت بعض وجوه من النقص والفوضى. فإن النسيان اعترى بعض هؤلاء المؤرخين فجعل بعض رواياتهم يضطرب، ويسوده الفوضى. ولكن على الرغم من هذا يجب أن نقول إن تلك الظاهرة كانت نادرة، وكان المؤرخون يكتشفونها سريعاً

بفضل الروايات الأخرى الآتية من مصادر مخالفة للأولى.
وأدت العناية بالروايات المختلفة والأسانيد المتنوعة إلى التكرار إلى درجة الإملال، فالحادث الواحد يوصف عدة مرات، دون أي زيادة أو تفصيل، على حسب الأسانيد المختلفة التي روته. ولكن هذه الظاهرة ـ فيما يبدو ـ كانت سائدة في الكتب الكبيرة وحدها. أما الرسائل الصغيرة فيبدو أنها نجت من هذه الظاهرة، كما يبدو من سيرة سليمان بن طرخان.

وجعلهم تأثرهم بالأحاديث يصبون كل نقدهم على الأسانيد دون النصوص مما يسر الإنتحال والإختراع، فإن الإسناد يمكن اختراعه بسهولة. وهكذا يمكن القول بدخول بعض الموضوعات في الميدان التاريخي، وإن كانت هذه الظاهرة يجب النظر إليها على أنها ضعيفة نادرة بسبب نقدهم الشديد للرجال. ولكن لم يكن هذا النقد ذا فائدة كبيرة في ميدان التاريخ القبلي والقصص والإسرائيليات.

وآخر الأمر نجد التاريخ الإسلامي بجميع صوره يسير على النمط المعروف عن الرواة الجاهليين، من سوق القصة التاريخية، وتقطيعها بالأشعار التي قد تشرح شيئاً من الحوادث أو تعلق عليها، أو لا تتصل بها إلا اتصالاً طفيفاً وكذلك يعنون بسرد الرسائل والوثائق منذ أوائل عهدهم بالتاريخ.

وإذا ما أحببنا أن نتكلم عن أسلوب الكتب عامة، وجدناه عربياً سهلاً بسيطاً مبيناً، ونجد تصوير الحوادث فيه وضوح وقوة

وحياة، حتى ليشعر المرء بالحوادث تقع أمامه، لولا تقطع القصة بالأشعار والتكرار.

ولنختم كلامنا عن الكتابة التاريخية، بذكر المدارس التاريخية التي ربما شعر بها القارىء من قبل. فإننا عند تدقيق النظر في تطور الحركة التاريخية نجد أن هناك ثلاث مدارس واضحة كل الوضوح.

المدرسة الأولى في الظهور هي المدرسة اليمنية التي يمثلها ابن شرية، ووهب ابن منبه. وهي المدرسة التي تظهر فيها الكتابة التاريخية العربية للمرة الأولى وهي تعنى بأخبار أهل الكتاب، وتاريخ اليمن. وترد التاريخ قصصاً خيالية وأساطير شعبية. فهي تمثل استمرار التيار الجاهلي أصدق تمثيل، ولذلك نستطيع أن نطلق على مؤرخيها إسم القصاص الشعبيين، أو الإخباريين وعلى كتاباتهم إسم الروايات التاريخية.

والمدرسة الثانية مدرسة المدينة. وهي تتألف من الفقهاء والمحدثين من أمثال أبان وعروة والزهري. وهي مدرسة التاريخ العلمي الدقيق الذي يعنى بالسيرة والمغازي، ويسير على خطى علم الحديث، ويعنى بالأسانيد، وتتطور مادة هذه المدرسة، فتتسع وتشمل تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين.

أما المدرسة الثالثة والأخيرة في الوجود فمدرسة العراق، التي يمثلها عوانة وأبو مخنف فيما بعد والكلبي وغيرهم. وهذه المدرسة واسعة الصدر تعني بكل تيارات التاريخ الجاهلي والإسلامي.

وتعطي عناية خاصة لتاريخ الخلفاء، وكان من أثر عنايتهم تلك أن احتل العراق المركز الأول في هذه التواريخ، ولذلك نجد تاريخ العراق وأحداثه مفصلة مطولة لدينا، بينما الأمصار الأخرى لا تنال غير الإشارات.

ثم نجد هذه المدارس الثلاث تلتقي. فتخرج لنا محمد بن إسحاق فيتناول هذا المؤرخ تاريخ اليمن وأهل الكتاب مثل اليمنيين، ويتناول السيرة مثل المدنيين، وتاريخ الخلفاء مثل العراقيين. بل نجد عنده خصائص المدارس الثلاث، من قصص شعبية، وأسانيد، وأشعار، لتحلية القصص، ومن أخبار أهل الكتاب، وبالإختصار جميع ما في المدارس الثلاث يوجد عند محمد ابن إسحاق.

المراجع

١ ـ يوسف هوروفتس: المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف.
٢ ـ دائرة المعارف الإسلامية، مواد تاريخ، وسيرة، وأسماء المؤرخين.
٣ ـ ابن حجر: تهذيب التهذيب، طبع الهند.
٤ ـ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، طبع ليدن.
٥ ـ ابن سعد: الطبقات الكبير، تحقيق سخاو.
٦ ـ ابن النديم: الفهرست، طبع أوروبا.
٧ ـ الذهبي؛ تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحاق، تحقيق فيشر.
٨ ـ ياقوت: معجم الأدباء، وتحقيق مرجليوت.
٩ ـ الخطيب البلغدادي: تاريخ بغداد، طبعة الخانجي.
١٠ ـ مرجليوث: محاضرات عن التاريخ العربي
١١ ـ MOROGIOUTH LECTURES ON ARABIC HISTORY
١٢ ـ عبد الحميد العبادي: علم التاريخ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الفصل الأول ـ ظهور التدوين التاريخي :	٩
العصر الجاهلي	١١
الأيام	١٢
الأنساب ـ تاريخ الأمم المجاور	١٣
ظهور الإسلام	١٤
الفصل الثاني ـ المؤرخون وكتبهم	١٩
زياد بن أبيه	٢١
دغفل النسابة	٢٢
عبد الله بن عباس	٢٣
عبيد بن شرية	٢٤
أبان بن عثمان	٣٩
عروة بن الزبير	٤١
وهب بن منبه	٤٨

عاصم بن عمر ٦١
محمد بن مسلم الزهري ٦٢
موسى بن عقبة ٦٥
سليمان بن طرخان ٦٨
عوانة بن الحكم ٧٣
محمد بن إسحاق ٧٦
الفصل الثالث ـ مظاهر الكتابة التاريخية ٨٧